مكتبة نوبل

١٩٢٠

كنوت هامسون

ڤكتوريا

رواية

ترجمة: د. خالد أقلعي

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

روايـــة

المؤلف: كنوت هامسون
عنوان الكتاب: ڤكتوريا
المترجم: د.خالد أقلعي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ٢٠١٣

Author: Knut Hamsun
Title: Victoria
Translator: Khalid Akalhi

جميع الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول
تلفون: ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٦ - تلفاكس: ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٧
www.daralamada.com Email: info@daralmada.com

سورية - دمشق ص.ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٢٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩
Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box: 8272 or 7366. - Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289

بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
Email: almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأيِّ طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكيةِ، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reprocuced stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means: electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

ISBN: 978-2-843-06171

twitter @baghdad_library

كنوت هامسون

ڤكتوريا

ترجمة

د. خالد أقلعي

صدرت الطبعة الأولى من هذه الرواية عام ١٩٥٥
عن منشورات : Tore Hamsun
صدرت الطبعة الثانية عام ١٩٧٧ عن منشورات: Calmann-Lévy

تمّت هذه الترجمة العربية الأولى عن النصّ الفرنسي:
Victoria,Knut Hamsun,traduit du norvégien par Ingunn Guilhon
,Bibliothèque du Temps Présent
Une Production Des éditions Rombaldi,1979

twitter @baghdad_library

يمضي ابن الطحّان حالماً. صبيٌّ في الرابعة عشرة من عمره، لفحته الرياح وأشعّة الشمس. ذهنه يغلي بالأفكار على الدوام: في المستقبل، سوف يصبح وقّاداً. ستضمن له هذه الحرفة اللذيذة الخطرة احترام الأصدقاء. وبما أنَّ آثار الكبريت سوف تعلق بأصابعه، فإن أحداً لن يجروً على مصافحته.

يبحث في الغابة بنظراته النزقة عن العصافير. يعرفها واحداً واحداً. يعلم أين تستقرّ أعشاشها. يدرك مغزى صرخاتها ويردّ عليها بطريقته. اعتاد أن يلقّمها كويرات عجين يصنعها من دقيق المطحنة. الأشجار، على طول الطريق، صديقاته. في الربيع يستخلص نسغها لنفسه، وفي الشتاء يرعاها مثل أبٍ حنون، فيحرّرها من ثقل الثلوج التي تجثم على أغصانها الصغيرة الدقيقة..

هناك في الأعلى أيضاً، حيث مقلع الغرانيت العتيد، حتى الأحجار حظيت بصداقته وودّه، ليس فيها ما هو غريب عنه.

ينقش على ظهرها بعض حروف وعلامات، ثم يصفّفها بانتظام فتبدو أشبه ما تكون بزمرة من المخلصين تحلّق حول قسٍّ. كان هذا المقلع، فعلا، مسرحا لكل أنواع المشاهد غير المألوفة.

يتّجه إلى النّهر والطاحون يعمل. يشعر به يخترقه بضجيجه القويّ المجلجل. اعتاد أن يقوم بجولات في هذا المكان ويكلّم نفسه. كلّ لؤلؤة طحلب تحكي له عن حياتها. هناك، بمحاذاة سور السدّ ينزل الماء مستقيماً، أشبه ما يكون بقطن منشور للتجفيف. بعيدا عن السور يجري النهر غاصّاً بالأسماك غالباً ما يحضر إلى هنا من أجل متعة الصيد.

بعد زمن، قد يصبح غطّاساً. نعم غطّاساً. سوف يرتمي من على سطح المركب ليغوص إلى ممالك عجيبة ذات غابات شاسعة، مائجة وملغزة..سوف يكتشف في العمق السحيق قصراً مرجانيّاً، ومن نافذته المشرعة تظهر أميرة حسناء تشير له بالدخول..

فجأة، يخترق سمعه صوت أبيه يناديه:

– يوحنّا! Johannes أرسلوا في طلبك من القصر.سوف تصطحب السّادة الصغار إلى الجزيرة على متن القارب.

يخفّ إبن الطحان إلى القصر على الفور، سعيداً بهذه الثقة الغالية.

يبدو المسكن الرّحب، في حضن الخضير، أشبه ما يكون بقصرٍ صغيرٍ، قصر خارق مهجور. بناء خشبي متّشح بالبياض،

twitter @baghdad_library

ذي نوافذ على شكل أقواس.كان كلّما استقبل ضيوفاً رُفعت راية في قمّة برجه. وعلى الرغم من صغره كان الناس ينعتونه بالقصر. يحدّ هذا البناء من جهة بشرْم، ومن جهة أخرى بالغابة الكثيفة. في الأعلى، ثَمَّة وجود لبعضِ المزارع الصغيرة التي يمكن تمييزها عن بعد.

يَمثُلُ يوحنّا على رصيف المرفأ، ويشرع في مساعدة الفتيان على ركوب القارب. يعرفهم حقّ المعرفة: سادة القَصر الصّغار في صحبة أصدقائهم من المدينة. كلٌّ كان ينتعل حذاء باستثناء ڤكتوريا، لم تكن تجاوزت العاشرة من عمرها بعدُ، وهي لذلك لا تزال ترتدي نعليها الصّغيرين. عليه، إذن، أن يساعدها...

–هل أحملك؟ سأل يوحنّا.

–لا، سوف أهتمّ بذلك بنفسي. قال أوطو Otto، أحد مراهقي المدينة، وهو يستعدّ لرفعها.

أخذ يوحنّا يراقبه وهو يفعل. ثم تبادرت إلى سمعه تشكّرات ڤكتوريا..

– حسنا، يندفع أوطو ويضيف، سوف تسهر على حراسة القارب... ما اسمه، قبلاً؟

– يوحنّا، أجابت ڤكتوريا، هو ذاك، يحرس القارب.

ثبت يوحنّا في مكانه مفكّراً، بينما أخذ الآخرون يلتحقون

بقلب الجزيرة بحثاً عن بيض العصافير. ودّ لو يتبعهم.. لو تعلّق الأمر بالقارب، وحسب، لكان من اليسير جرّه إلى اليابسة. أيكون ثقيلا إلى هذا الحدّ؟! كلاّ.

ولكي تكتمل قناعته أخذ يرفع الزورق بيديه شيئاً فشيئاً... ثَمَّة ضحكات وشظايا عبارات تأتيه من الجماعة المبتعدة. حسناً، إلى اللّقاء. كان في مقدورهم، مع ذلك، أن يصطحبوه معهم. يستطيع أن يطلعهم على مواقع الأعشاش وتجويفات الصخور حيث تقطن كواسر الطيور ذات المناقير المعقوفة الحادة. في مرَّة أمكنه أن يرى حتى فُقْمة.

دفع القارب إلى الماء ولفّ حول الجزيرة. كان قد جدّف زمنا لا بأس به عندما تبادر إلى سمعه صياحهم:

– هيه.. إذهب إلى حال سبيلك! لا تبث الذعر بين العصافير.

– ولكن... رغبت فقط في أن أرشدكم إلى مأوى الفُقمة، نستطيع، بعد ذلك، أن ندخّن عشّ الأفاعي.. واستأنف بعد لحظة صمت، معي ما يكفي من أعواد الكبريت.

لم يتلقّ ردّاً، وعاد بالقارب إلى نقطة الانطلاق حيث جذبه إلى اليابسة من جديد...

غداً سوف يبتاع السّلطان جزيرة يُحظر ولوجها. جزيرة بمدفعيّة تحمي سواحلها المترامية الأطراف. وذات يوم سوف يقبل عبيده صائحين:

twitter @baghdad_library

– معذرة يا صاحب الفخامة، هناك مركب يعبر الجزيرة. هؤلاء الفتيان الغزاة سيبتلعهم اليمّ!

– اتركوهم يغرقون!

– إنّهم يستغيثون جلالتكم، لا يزال هناك بعض وقت لإنقاذهم! ثمّة وجود لسيدة بينهم، يا مولاي، تتلفّع بالبياض.

– أنقذوهم، إذن، أنقذوهم. يأمرهم بصوت مرعد.

هكذا، بعد سنوات طويلة يلتقي بفتيان القصر. سوف ترتمي ڤكتوريا تحت قدميه شاكرة له إنقاذه إيّاهم من موت محقّق.

– لا تشكريني، يعلن بشهامة، لم أقم إلاّ بالواجب. يمكنكم أن ترتعوا في مملكتي أنّى شئتم.

هناك، في الأسفل، يأمر بتشريع أبواب قصره في وجه الجميع. يطعم ضيوفه أصناف المأكولات في أطباق من إبريز خالص، بينما ينصرف ثلاثمائة عبد وجارية إلى الغناء والرقص والسّخرة طوال اللّيل...

عندما تأزف ساعة الرّحيل تمثل ڤكتوريا على ركبتيها بين يديه، مغرمة متيّمة، تغمغم منتحبة:

– «اتركني، يا مولاي، أمكث بالقرب من جلالتكم. لا تطردني، اجعلني أمة من إمائك».

وأخذ يوحنّا يتوغّل في قلب الجزيرة بعدما أصبح أسير انفعال شديد.

نعم، سوف ينقذ فتيان القصر! من يدري، لو أنهم انتظروا قليلاً ما تاهوا؟ من يدري، قد تكون ڤكتوريا، اللّحظة، محاصرة بين الصخور؛ عاجزة عن تخليص نفسها؟ في هذه الحال، ما عليه إلّا أن يمدّ إليها يده ليحرّرها...

كانت دهشة الفتيان عظيمة وهم يرونه مقبلاً عليهم. هل تخلّى عن القارب؟ هل سُرق منه؟

– أحمّلك مسؤولية ضياع القارب، زمجر أوطو موبِّخاً.

– أستطيع أن أقودكم إلى حيث تنتشر أشجار المشمش، اقترح يوحنّا على التوّ.

ويسود صمت ثقيل. وحدها ڤكتوريا تتحملّ عبء الإجابة:

–أوه.. صحيح! أين ذلك؟

غير أنَّ فتى المدينة لم يتأخر في إبداء ردّة فعله السّريعة:

– قطعاً لا.

–أعرف، أيضاً، أين يكثر المحار...

صمتٌ ثقيل يسود الفضاء من جديد.

– محار لؤلؤيّ، استفسر أوطو.

twitter @baghdad_library

– هل هذا صحيح؟!، هتفت ڤكتوريا مندهشة.

هذا ما يجهله يوحنّا، لكن، في كلّ الأحوال، يوجد المحار في بقعة بعيدة جدّا، على الرمال البيضاء.

يلزم، لاصطياده، إبحار على المركب وغوص إلى الأعماق.

بسماع هذه الكلمات، انفجروا ضاحكين جميعاً..

– تبدو لي غوّاصاً مضحكاً!، علّق أوطو بسخرية.

– إذا شئتم... يمكنني أن أتسلّق الجبال وأدحرج صخرة ضخمة في اتجاه النهر، اقترح يوحنّا بنفَسٍ متقطّع.

– ما الدّاعي إلى ذلك؟!

– لا لشيء.. لتتسلّوا وحسب.

لم يكن هذا الاقتراح ليُستقبل بأفضل من سابقه... عندئذ أطرق يوحنّا في خزي، قبل أن ينصرف وحيداً، يبحث بهمّة عن بيض العصافير في ضفّة الجزيرة الأخرى.

التقى الجمع، أخيراً، على مقربة من القارب الراسي. كان يوحنا قد جمع من البيض أكثر من الآخرين احتفظ به داخل قبعته بحذر شديد.

– كيف استطعت أن تعثر على كلّ هذا البيض؟! سأل أوطو متعجّبا.

–أعرف موضع الأعشاش، أجاب يوحنّا مزهوّاً، ثم أضاف مخاطباً ڤكتوريا، ڤكتوريا، خذي، ضعيها مع بيضك.

– توقَّفْ! صاح أوطو. لماذا تفعل هذا؟

تفرّس فيه الجميع فتابع كلامه موضّحاً:

– من يضمن نظافة هذه القبّعة؟

آنئذ، أصاب يوحنّا الخرس. تبخّرت فرحته، ورجع القهقرى يحمل بيضه.

– ولكن ما به؟ إلى أين يذهب هكذا؟! سأل أوطو مستغرباً!

لحقت ڤكتوريا بيوحنّا وكرّرت السّؤال:

– إلى أين تذهب يوحنّا؟

توقّف وأجاب بصوت حزين:

– سوف أعيد البيض إلى أعشاشه.

وظلّا يتبادلان النّظرات برهة من الزّمن ثم أردف:

– سوف أصعد إلى المقلع عصر هذا اليوم.

ولكن ڤكتوريا لم تعلّق.

– يمكنني أن أصطحبك إلى المغارة.

twitter @baghdad_library

– أَرتعبُ لسماع اسمها؛ قلتَ إنها معتّمة.

وعلى الرغم من انكسار نفسه بادر يوحنّا إلى الابتسام في وجهها محاولاً طمأنتها:

– لا داعي للخوف، سوف أكون برفقتك.

اعتاد، منذ يفاعته، أن يصعد للّعب في أعلى الجبل،حيث يستقرّ مقلع الغرانيت القديم. يقضي سحابة يومه متجوّلا، ومحدِّثا نفسه. أحياناً، يتقمّص دور قسيس يخطب بخشوع في زمرة من المخلصين. إنّه منجم مهجور منذ زمن بعيد. انمحت، بمرور الأيام، كلّ معالم الحفر فيه، وغطَّت الطحالب كلَّ حجر من أحجاره. غير أنَّ جوف المغارة السرية كان نظيفاً ومنظّماً بذوق فنِّي رائع من قبل إبن الطحان الذي اتَّخذها مأوى خاصّاً به. هناك، كان بمنزلة أكثر الزّعماء الثّوار بسالة في العالم.

يُحرِّك جرساً فضيّاً فيقبل نحوه رجل صغير ينطّ، قزم أنيق يشبك طربوشه بدبّوس ماسيّ صغير. إنّه خادمه يقدّم فروض الطّاعة والولاء.

– أدخِلِ الأميرة ڤكتوريا فور وصولها. يأمر يوحنّا بنبرة سلطويَّة.

ينحني القزم، من جديد، قبل أن يختفي.

يتمدّد يوحنّا على ديوانه الوثير وهو يفكّر: سوف يُصدر أمره المطاع بإجلاسها هنا، على مقربة منه، ثم إطعامها من ألذّ أصناف الطعام المعروضة في أطباق من إبريز وفضّة.. نار عظيمة سوف تضيء المغارة، وخلف ستارة الحرير المذهَّبة السّميكة ستنام على سرير يحرسه إثنا عشر فارساً مغواراً.

هبّ يوحنا واقفاً، وانبرى خارجاً من المغارة يسترق السّمع...ثَمَّة وقع خطوات تخشخش أوراق المسلك النباتيّ الضيّق وتحرك أغصانه.

– ڤكتوريا! صاح ملءَ فمه.

– نعم، أنا هي.

وانطلق للقائها ثملاً من الفرح.

– لا أجرؤ على الاستمرار... قالت.

حرّك كتفيه، وانطلق نحوها:

– إسمعي، سوف أخرج في الحال لاقتيادك.

وَلَجا معاً جوف المغارة، وأشار لها أن تجلس على حجر:

– من لحظة فقط كان الغُول يجلس مكانك.

– توقَّف! لا تتحدَّث عن هذه الأشياء...ألا تخاف؟

– بالطبع لا.

twitter @baghdad_library

– قلتَ لي يوماً إنّ الغُول ذو عين واحدة، هذا ليس صحيحاً، وحدهم الترول Trolls (العفاريت) كذلك.

وتأمّل يوحنّا هذه العبارات مليّاً.

– الحقّ أنه كان له عينان، غير أن إحداهما فقئت بسبب حادث قديم، هو من اعترف لي بذلك.

– ماذا أخبرك أيضا؟ لا..لا أريد أن أعرف.

– سألني إن كنت أقبل بالعمل معه

– ولكنك رفضت،أليس كذلك؟ ليحفظك الله..

– لنقل أنني لم أرفض بشكل حاسم.

– هل جننت؟ أترغب في أن يأسرك في جوف الجبل؟

– أوه، بعد كلّ شيء، ليست الحياة على سطح هذه الأرض أقلّ قسوة.

وحال بينهما صمت ثقيل، استأنف يوحنا، بعده، الكلام:

التُّرول Trolls هم عفاريت الأساطير الإسكندنافية.

– منذ أقبل فتيان المدينة وأنت لا تغادرينهم..

لكنها أبت أن تردّ.

– كنتُ أكثر قدرة من أي واحد فيهم على حملك وإنزالك من على متن القارب، أستطيع أن أحملك ساعة كاملة بين ذراعيّ من دون أن أتعب، تعالي، انظري..

رفعها بينما تعلّقت هي بقفاه. وبعد لحظة أمَرته:

– والآن، أطلقني يوحنّا.

امتثل للأوامر، وأنزلها على الأرض.

– أُوطو أيضاً قويّ، حتى أنه صارع أشخاصاً كباراً!

– أشخاصاً كباراً؟! عبّر يوحنّا بارتياب.

– نعم، في المدينة.

– في هذه الحال..، ليس أمامي إلّا أن أنفّذ ما قرّرته..

– ماذا تقصد؟

– سوف ألتحق للعيش مع الغُول.

– هل جننت؟ صرخت ڤكتوريا.

– الأمر سيان بالنسبة لي، سوف أرحل لا محالة.

وأخذت ڤكتوريا تبحث عن مبّرر يثنيه عن قراره:

– ربّما لن يعود الغول إلى هنا مرّة أخرى.

twitter @baghdad_library

– أكدّ لي أنّه سوف يعود.

– إلى هنا؟ سألتْ برهبة

– نعم.

نهضت واتّجهت نحو المخرج.

– هيّا، أريد أن أعود إلى البيت.

–لا داعي للعجلة، قال يوحنا بوجهٍ شاحب ثمّ واصل كلامه، لن يكون هنا قبل منتصف الليل.

اطمأنت ڤكتوريا لكلماته وهمّت بالعودة إلى مجلسها، غير أن يوحنّا لم يكن الآن على ما يرام، وحزّ في نفسه أن تتبدّد أجواء الرّعب التي عمل، منذ لحظات، على استثارتها في وجدانها.

وغيّر الاتجاه:

– إذا كنت مصرّة على الذّهاب، دعيني أطلعك على حجر نقشت عليه اسمك.

انحنيا وغادرا المغارة في اتجاه الحجر. وعندما وصلا إلى المكان المحدّد، اشتعلت ڤكتوريا سعادة وبهجة، أما يوحنّا فاعترف بانفعال شديد:

– لعلّك تتذكّرينني كلّما شاهدتِ هذا الحجر.

– بلى، ولكنك سوف تعود إلينا، أليس كذلك؟

– من يدري؟ لا، لا أظنّ.

اتّخذا سبيلهما نحو البيت. وواجه يوحنّا مشقّة كبيرة في كبح دموعه.

– إلى اللقاء إذن، قالت ڤكتوريا.

– لا، ليس بعد، سوف أرافقك في الطريق قليلاً.

غشيته حقيقة مبادرتها إلى توديعه بالمرارة والحزن، وسهّلت امتزاج الغضب في وجدانه بالانفعال. عندئذ توقّف بشكل مفاجئ وأعلن:

– اعلمي فقط، ڤكتوريا، ألّا أحد غيري في مقدوره أن يكون أكثر لطفاً معك.

– أوطو، أيضاً، لطيف معي.

– حسناً، هو لك إذن.

تمشيا قليلاً في صمت.

– اطمئنّي، سوف أكون على أحسن حال، لا تعلمين كم سأتقاضى من أجر.

– لا.

– نصف المملكة.

– غير صحيح!

– فضلاً عن الأميرة...

twitter @baghdad_library

وتوقّفت ڤكتوريا عن السّير.

– هذا ليس صحيحاً، قُل؟

– بلى، وعدني بكلّ ذلك؟

أطرقت ڤكتوريا برهة، ثم تمتمت وكأنّها تخاطب نفسها:

– أتساءل كيف هي؟

– آه، لو تعلمين... أجمل من أيَّة مخلوقة بشرية. هذا أمر معروف.

وانهزمت ڤكتوريا.

– وأنت، هل ترغب فيها؟

– لنقل... نعم.

ويضيف بعدما تأكّد أنَّ كلامه أثّر فيها بعمق:

– ربّما أعود يوماً لأرى من جديد وجه البسيطة.

– وإذن، ستأتي بمفردك، قُل؟ لماذا ستحضرها معك؟

– إذا رغبتِ في ذلك آتي بمفردي.

– هل تعدني؟

– أعدك، إذا كان هذا يرضيك. ولكن، فيم يهمّك هذا؟ ماذا أعني أنا بالنسبة إليك؟ وجودي مثل عدمه، أليس كذلك؟

– لا تقل هذا، أنا واثقة من أنَّها لا تحبّك بقدر ما أحبّك.

أنعشت فؤاده الصغير سعادة عميقة، كان جديراً به أن يشرع بالقفز فرحاً. يا إلهي، كم أسعدته هذه الكلمات! ولأنّه لم يجرؤ على النظر في وجهها دارى وجهه عنها ثم التقط غصناً وشرع في نزع لحاه قبل أن يسترسل في ضربه بكفه ضربات متوتّرة متتالية. أخيرا، وبعد أن حَارَ كيف يسيطر على نفسه، أخذ يُصفّر!

– حسنا، أظن أنَّ وقت رجوعي أزفَّ.

قال يوحنّا.

– إلى اللقاء إذن.

أجابت ڤكتوريا وهي تمدّ له يدها.

غادر إبن الطحان البلد. ظلّ غائبا سنوات طوالاً. التحق خلالها بالمدرسة. تعلّم وأصبح كبيراً وقويّاً، وأمكنه أن يرى شفته العليا تتزيّن بزغب ناعم. كانت المدينة بعيدة جدّاً، وكان السّفر إليها ذهاباً وإياباً يكلّف الشّيء الكثير، وهو ما جعل الطحّان الطيّب ينزعج من ضرورة ترك ابنه في المدينة صيفًا وشتاءً. أما الفتى، وقد بلغ الآن حوالي العشرين من عمره، فاستغلّ هذا الوضع ليتابع دراسته وإبداعه بدون انقطاع.

في قيلولة ربيعٍ، أبحر يوحنّا على متن سفينة بخاريَّة في

twitter @baghdad_library

اتجاه البلدة. كانوا رفعوا العلم في القصر على شرف ديتلف Ditlef، السيّد الصغير الذي صادفت عودته على نفس السّفينة طلبا لقضاء العطلة، وكانت سيارة تنتظره على الرصيف.

حيّا يوحنّا سيّد القصر، حيّا أيضاً زوجته وڤكتوريا. يا إلهي، كم كبرت!. لم تردّ على تحيته. رفع قبّعته من جديد وسمع الفتاة تسأل أخاها:

– قل لي ديتلف، من هذا الفتى؟

– هذا يوحنّا، أَنسيت، إبن الطحّان..

نظرت إليه حينئذ، لكنّها أبت أن تحيّيه. وابتعدت السيّارة.

توجّه يوحنّا، بعد ذلك، إلى بيت والديه. كم كان صغيراً ولطيفاً! اضطرّ أن ينحني قليلا عساه يتمكّن من الدّخول. استقبله والداه باهتمام كبير، انتابه إثر ذلك تأثّر عظيم. كلّ شيء في هذا البيت عزيز عليه، ووديع. لا يتوقّف أبوه وأمه عن التّرحيب به والشدّ على يديه.

في المساء ذاته، قام بجولة قصيرة لزيارة كلّ المواقع التي اعتاد أن يرتادها من قبل: الطاحون،

المقلع، الرّكن حيث كان يصطاد، الغابة. أرهف السّمع بكآبة إلى إنشاد العصافير التي شيّدت، من قبلُ، أعشاشها في حضن الأشجار. توجّه، في نهاية المطاف، نحو وكر النّمل الكبير.

كانت الحشرات قد اختفت. أخذ يحفره بكفّيه، لكن لم يجد فيه أثراً لحياة. لاحظ، كذلك، أن أشجاراً كثيرة تمّ اجتثاثها في غابة القصر.

– هل وجدت نفسك؟، قال الأب مازحاً ثم أضاف، هل رأيت سّماناتك من جديد؟

– لا، لم أعد أذكر شيئاً. لقد اجتثّوا أشجاراً كثيرة هنا.

– الخشب مِلكٌ لسيّد القصر، لا حقّ لنا في عدّ أشجاره.. يأتي على الإنسان حين من الدّهر يكون فيه بحاجة إلى مال، هذا بالضبط حال سيد القصر.

وتمرّ الأيام، أيّام وديعة، مؤثرة، محمولة على إيقاع لحظات توحّد عذبة وثريّة بذكريات الطّفولة. عودة للالتحام بالأرض والسماء، بالهواء الطلق والصخور.

واتخذ سبيل القصر. في الصباح، لسعه زنبور في شفته العليا فانتفخت كثيراً؛ كان الأمر محسوماً: إذا ما التقى أحداً، سوف يحيّيه من دون أن يتوقّف. لم يصادف أحداً. لاح له، من بعيد، طيف امرأة يتحرّك في حديقة القصر، بمجرَّد ما اقترب منها انحنى باحترام وتابع طريقه. إنها سيّدة القصر المصون. هذا حاله مذ كان طفلاً، لا يتوقّف قلبه عن الخفقان كلّما مرّ من هذه الناحية. ثمّة وجود لاحترام كامن في أعماقه يفرضه هذا المنزل الرّحب بنوافذه الكبيرة، وبشخصية مالكه الصّارمة، الوقور.

twitter @baghdad_library

وبينما كان ينزل نحو الأرصفة إذا به يصادف، فجأة، كلّاً من ديتلف وڤكتوريا. شعر بالانزعاج على الفور؛ هل يظنّان أنّه كان يقتفي أثرهما؟ وكيف يواجههما بهذه الشفّة المنتفخة المتغضّنة؟ في ذروة حيرته حث يوحنّا الخطى، وقرّر، وهو يفعل، ألّا يتوقّف. حيّاهما من بعيد برفع قبعته وهو يتجاوزهما. ردّا عليه بإشارة بسيطة ثم تابعا جولتهما. ومع ذلك، خصّته ڤكتوريا بنظرة طويلة، وإن كان تعبير وجهها قد اختلف.

تقدّم يوحنّا نحو الأرصفة؛ سبّب له هذا اللّقاء اضطراباً كبيراً، وبدا مظهره أكثر عصبيّة. حقّا، كبرت ڤكتوريا بشكل مدهش: صارت امرأة، فعلا، وأكثر روعة من ذي قبل. أوشك حاجباها أن يلتقيا عند أعلى الأنف أشبه ما يكونان بخطّين مخمليين ناعمين، وبدت نظرتها ذات الزرقة الغامقة أكثر عمقا ممّا كانت عليه في الماضي.

قرّر أن يذهب في حال سبيله، فاستعار طريقاً صغيراً عبر الغابة حتى يتمكّن من المرور بعيداً عن حديقة البناء. لا ينبغي أن يُتّهم باقتفاء آثار أبناء القصر بحال من الأحوال! نطّ على تلّة وجلس على حجر. الفضاء من حوله يغري جوقة عصافير بريّة، مغرمة بالتّنادي والبحث عن بعضها البعض، منها ما يحمل غصنا صغيرا بمنقاره... ثمّة وجود لشذى سماد عذب، أوراق أشجار وليدة، وبقايا جذوع متعفنة تعطّر الجوّ.

وللسخرية المقيتة، قادته خطواته نحو ڤكتوريا التي

انحرفت عن الطريق مقبلة عن يمينه. وبينما كان اليأس والارتباك يمتلكانه، تمنى لو انشقت الأرض وبلعته. سوف تظنّ أنّه يقتفي أثرها، لا محالة. ماذا يفعل؟ هل عليه أن يحيّيها من جديد؟ ربّما ينجح في مداراة وجهه أكثر فأكثر بحيث لا تتأذّى من رؤية لسعة الزّنبور المنقوشة على شفته.

في كلّ مرّة تكون بالقرب منه ينهض ويخلع قبّعته. وقد ابتسمت له هذه المرّة، وحيّته بإيماءة من رأسها:

– مساء الخير، ومرحبا بك بيننا.

بدت شفتاها مرتعشتين قليلاً، لكنّها لم تفتأ أن تحكّمت بانفعالها.

– قد يبدو لك وجودي هنا غريباً، بكلّ تأكيد، والحقّ أنّني لم أكن أعرف أنك سوف تمرّين من نفس المكان.

– من أين لك أن تعلم؟ أنا أيضاً راودتني فكرة المرور من هذا الطريق.

آه، لقد خاطبها بضمير المفرد!

– كم من الوقت ستبقى هنا؟ سألت.

– زمن العطلة المدرسيّة.

فجأة، أحسّ بها تبتعد، ولم يجروْ على أن يتابع حديثه معها بشكل طبيعي. لماذا كلّمته إذن؟

twitter @baghdad_library

– يقول أخي ديتلف أنك موهوب، يوحنّا، وأنك تتفوّق بامتياز في امتحاناتك. يقول، أيضاً، أنك تنظم شعرا. هل هذا صحيح؟

أجاب ببساطة مرتبكاً:

–نعم، مثل كلّ الناس..

لم يصدر عن ڤكتوريا أيّ تعليق. كانت تتهيّأ للإِنصراف، بدون أدنى شكّ.

– أنظري هذا، لسعني زنبور هذا الصّباح، قال يوحنّا وهو يكشف لها عن شفّته، وفمي متورّم عن آخره.

– هذا يعني أنّك غبت طويلا حتّى لم تعد الزنابير تتعرّف عليك.

ما معنى أن تشوّهه لسعة زنبور؟ الأمر سيّان بالنّسبة إليها. حسناً. وأخذت تعبث بمقبض مظلّتها الحمراء المذهّب ببرودة واضحة. كان يبدو ألاّ شيء يشغل بالها. ومع ذلك، كم مرّة حملها بين ذراعيه بلطف؟!

– لم أعد أعرف الزنابير، كرّر، في الماضي كانت صديقاتي.

كان لكلماته مغزى عميق لم تدركه؛ وأطرقت خرساء.

– لم أعد أميّز شيئاً هنا. حتى الغابة تبدّلت: اجتثّوا منها أشجاراً كثيرة.

وارتعشت بشكل غير مفهوم.

– في هذه الحال، قد لا تزورك ربّات الشعر هنا. ومع ذلك سوف أكون مسرورة لو أهديتني يوماً إحدى قصائدك. ولكن، ماذا أقول؟ أرأيت، لا أعرف شيئاً.

أطرق يوحنّا مضطرباً مذهولاً. إنها تسخر منه بلطف، وتتحدّث إليه بنبرة متعالية حتى تحكُم بعد ذلك على ردّة فعله.. عُذراً، لم يضيّع وقته في الكتابة وحسب، قرأ أيضاً، ربّما أكثر من الآخرين.

– حسناً، أظنّ أنّنا سوف نلتقي. إلى اللقاء.

رفع قبَّعته وانصرف بدون أن يجيب.

لو تعلم أن كلّ أشعاره كانت مهداة إليها، إليها وحدها. كلّها، ومنها قصيدتا «اللّيل» و«رُوح البِركة»، لكنَّها، أبداً، لن تعرف ذلك.

حضر ديتلف صبيحة الأحد التالي يبحث عنه ليصطحبهم إلى الجزيرة.وفكّر يوحنّا: «يريدون أن أقودهم من جديد، ما في ذلك شكّ». وعندما مثل على رصيف الميناء وجد بعض الأشخاص يتجوّلون مغتنمين يوم عطلةٍ دينية. كلّ شيء كان هادئاً تحت الشّمس اللّافحة. فجأة، تبادرت إلى سمعه نغمات موسيقية: ثمّة وجود لجوقة موسيقيّة تعزف على متن سفينة بريديّة أخذت تقترب من الميناء شيئاً فشيئاً بعد انعطاف واسع.

twitter @baghdad_library

حرّر يوحنّا المركب، وأخذ مكانه مستعداً للتّجديف. كان مزاجه رائقاً حالماً. وهذا النهار الجميل المكلّل بالنغم يغزل أمام ناظريه قماشاً من ورود مذهّبة وسنابل.

ماذا يفعل ديتلف يا ترى؟ تراه منشغلاً بمراقبة السفن البخارية والناس كأنّ لا نيّة له في الإبحار. وقرّر يوحنّا: «تبّاً، لن أمكث هنا زمناً طويلاً، سوف أرجع».

كان على وشك استئناف القيادة عندما عبر أمام ناظريه وميضٌ أبيض حادّ متبوعاً بصوت ارتطام جسد بالماء. اشتعل صراخ يائس داخل السّفينة، وبين صفوف الجمهور الغفير المكدّس على رصيف الميناء. شرعت الأيادي والنظرات تتّجه إلى الموقع الذي اختفت فيه البقعة البيضاء. توقّف العزف على الفور. وفي رمشة عين كان يوحنّا في المكان عينه. تصرّف بعفويّة وغطس بدون تردّد. كانت الأم تصرخ من على ظهر السفينة: «ابنتي! فلذة كبدي! » لكنّه لم يكن ليسمعها.

وغاص للحظات، وكشفت اضطراباته تحت الماء ضراوة ما يخوضه من صراع، بينما لا تزال صرخات البؤس تنبعث من السّفينة.

ظهر يوحنّا على السّطح في مكان بعيد شيئاً ما، على بعد أذرع من موقع الحادث «لا، من هنا، من هنا»، صاح أحدهم مع إشارات كبيرة بيديه.

وعاد يوحنّا إلى الغطس من جديد. لحظات رعب حقيقية. يرتفع ثانية نحيب الزّوجين على سطح السّفينة وهما متشابكا الأيدي يأساً. غطس ضابط المركب بدوره بعدما خلع حذاءيه وسترته. سبح بسرعة إلى مكان الحادث، وأصبحت كلّ الآمال معلّقة عليه. فظهر رأس يوحنّا من جديد، أكثر بعداً من ذي قبل، على بعد أذرع كثيرة من موقع الحادث. فقد قبّعته وأخذ رأسه يشعّ بفعل الشّمس أشبه ما يكون بكويرة نحاسيّة. كان يعاني صعوبات خفيّة وهو يسبح نحو قاربه، وكانت إحدى يديه مشغولة بحمل ثقيل. بعد ذلك بقليل أصبح يُرى وهو يشدّ بأسنانه شيئاً أشبه ما يكون بكيس أبيض مبلّل: لم يكن ذلك الكيس إلاّ الغريقة يجرّها إلى الخارج، ساحبا إيّاها من طرف كسوتها تحت هتاف الجماهير وتصفيقهم.

لا شكّ في أن الضّابط سمع أيضاً هذا الهتاف، لأنّه رفع رأسه ونظر من حوله. كان القارب قد انحرف قليلا عن الطريق، لكن يوحنّا أدركه أخيرا ومدّد الفتاة عليه، قبل أن يصعد بدوره. لقد أمكن رؤيته وهو يميل عليها ويقدّ قميصها من الأَمام، ثمّ يمسك بماعون القيادة متوجّها بكلّ قوّته نحو السّفينة حيث سلّم الغريقة تحت هتافات المسافرين.

– كيف جاءتك فكرة البحث في مكان بعيد؟، سأل أحدهم.

– أعرف الأعماق جيّداً.. أدركت أنَّ ثَمَّة تيارات بحريّة جارفة.

twitter @baghdad_library

تقدّم نحوه رجل شاحب على طول الحزام الأمني للسّفينة وابتسم له بخجل. ثَمَّة دموع لا تزال تبلّل أهدابه:

– إصعد قليلاً، من فضلك. أريد أن أشكرك، قال الرّجل ثم أضاف، في ذمتنا دين كبير تجاهك. لن يستغرق الأمر أكثر من لحظة قصيرة.

فُتح باب السفينة ليوحنّا فصعد. لم يمكث إلاّ لحظات، قدّم نفسه فيها وعنوانه للرجل وزوجته التي ارتمت عليه وعانقته دون أن تعبأ بملابسه المبلّلة. أما الرجل الممتقع المرتبك فقد أهداه ساعته. ونزل يوحنّا إلى الحجرة الصغيرة حيث أخذ طبيب وممرضة يهتمان بالغريقة:

– طيّب، ها قد تحسنت حالتها وأصبح نبضها منتظماً.

تأمّل يوحنّا المريضة: فتاة شقراء ترتدي كسوة بيضاء قصيرة ممزّقة تكشف عن جزء من صدرها. أخيراً، وضع أحدهم قبعة على رأسه واقتاده إلى الخارج.

حار يوحنّا كيف يمكنه أن يطأ رصيف الميناء؟! وما السبيل إلى سحب مركبه الصغير في اتجاه اليابسة؟ كان يسمع بوضوح آخر الهتافات والأنغام الموسيقية المنبعثة من حيث تبتعد السفينة البخارية. غشيته موجة فرح عارمة، ناعمة ورطبة في الوقت نفسه، من قمّة رأسه حتى أخمص قدميه. وابتسم، بشفتين مرتعشتين.

– يبدو أن لا نزهة لنا اليوم، زمجر ديتلف غاضباً.

كانت ڤكتوريا التحقت بهما على التوّ، فأدلت دلوها:

– هل جننت! عليه أوّلا أن يُغيّر ملابسه المبلّلة!

أيّ حدث مبهر هذا الذي توّج به التاسعة عشرة من عمره؟!

رجع يوحنّا إلى منزله مشياً على الأقدام. كان صدى الموسيقى والهتافات يتردّد في وجدانه، وبدا كأنّه ما يزال مأخوذاً بأثر الانفعال. اجتاز عتبة بيته واخترق الغابة في اتجاه مقلع الغرانيت. هناك، شرع يبحث عن مكان يأخذ فيه حّمام شمس لعلّ ثيابه تجفّ. جلس، ولكن، من فرط سعادته، هبّ واقفاً من جديد ليطوف حول المكان. أيّة سعادة هذه! وخرّ على ركبتيه منتحباً متضرّعاً إلى الله، شاكراً إيّاه على هذا اليوم الرائع.. هي أيضا كانت هناك، وسمعت الهتافات، حتى أنهّا قالت: «عُد إلى البيت حالا وغيّر ملابسك».

اعتدل يوحنّا في جلسته واستأنف ضحكه مرّة أخرى. نعم، شهدَته وهو ينجز هذا الفعل المظفّر، تابعَته بنظرات فخورة وهو يُقبل من بعيد والغريقة بين أضراسه. ڤكتوريا! ڤكتوريا! لو تعلم أنّها تملك كلّ لحظة من لحظات حياته! يرغب في أن يصبح خادماً مطيعاً لها، عبداً يكنس بأكتافه الطريق أمامها، يقبّل راضياً حذاءها الصغير، يجرّ عربتها، ويضع الحطب في مدفأتها ليالي الشتاء «حطب مذهّب في مدفأتك، ڤكتوريا».

twitter @baghdad_library

نظر من حوله: لا أحد. كان وحيداً. وضع في راحته الساعة الجميلة وأخذ يختبر عملها. شكراً ربّي، شكراً على هذا اليوم البهيج! أخذ يداعب الطحالب العالقة بالأحجار والأغصان التي سقطت على الأرض. ڤكتوريا لم تبتسم في وجهه، بطبيعة الحال، لكنَّها لم تكن على سجيّتها. ظلَّت جامدة على الرصيف بينما اعتلت وجنتيها حمرة خفيفة. ودّت، ربّما، لو أهديتُها السّاعة؟

تغرب الشّمس وتخفّ درجة حرارتها فيكتشف يوحنّا، فجأة، أنّ ملابسه لا تزال مبلّلة. يعدو، رشيقاً مثل ريشة، في اتجاه البيت.

أحيى القصر حفلاً بهيجاً ساد فيه الرقص والمرح. حضر ضيوف كثيرون من المدينة، ورفرف العلم فوق البرج أسبوعاً كاملاً.

كان ينبغي أنّ يُشرع في أعمال الحصاد وتخزين القمح والحشائش، غير أنّ الجياد صُودرت لتلبية رغبات الضيوف: الرجال يضطلعون بدور الحذاة والمجذّفين، على الحصاد أن ينتظر إذن؛ بينما الغلّة تُتلف تحت الأقدام!

في الصالون تُعزف الموسيقى باستمرار...

أصبح الطحّان العجوز لطيفاً كلّما امتدّ به الكبر. فضّل أن يوقف الطاحون ويغلق باب بيته. حدث، في ما مضى، أن باغتته ثلّة من متبلّدي المدينة المشاغبين وأخذت تعبث بأكياس القمح. كانت اللّيالي أيامها أكثر حرارة وصفاء بحيث تتكاثر فيها

الأعمال القبيحة... مرّة،وضع الأمين الثريّ، وكان في شبابه ما يزال، وكر نمل في جرن ماء أودعه جوف الطّاحون.

الأمين أيضاً تعقّل مع مرور الأيام، غير أن نجله أوطو ورث هذه الشّقاوة، يأتي إلى القصر دائما مهووساً بالحيل المفرطة في الغرابة... يحكون عن (شيطنته) أخباراً كثيرة..

ضجيج قباقيب وصراخ ينبعث من قلب الغابة. إنّهم الفتيان الذين يمتطون جياد القصر اللاّمعة المتوتّرة. حالما يصلون إلى مأوى الطحّان يشرعون في طرق الباب بأسواطهم القصيرة وكأنهم يرغبون في دخول البيت على جيادهم رغماً عن قِصر الباب.

– صباح الخير، صباح الخير، يصرخون، جئنا لنحيّيك وحسب.

يبتسم الطحان بتواضع وثبات، بينما ينزلون من على جيادهم، يربطونها ويشغّلون الطاحون.

– الخزّان فارغ، يهتف الطّحان، سوف تكسرون الرّحى!

لكن، مع هذا الضجيج الذي يصيب بالصّمم لا أحد يسمعه.

– يوحنّا.. يوحنّا.. يصرخ العجوز ملء صوته في اتجاه مقلع الغرانيت.

ويظهر يوحنّا بعد لحظة.

– يقومون بتشغيل الطاحون وهو فارغ، يوضح الأب.

twitter @baghdad_library

يتقدَّم يوحنّا ببطء نحو الفتيان.يبدو شاحبا، بينما تبرز أوردة نافرة من صدغيه.. يتعرّف إلى أوطو إبن الأمين، بلباسه الرسمي الشبابي؛ يحييه أحدهم كما لو كان يريد أن يسترضيه.

يترجّل إبن الطحّان نحو أوطو من دون أن ينبس بكلمة أو يومئ بإشارة. وفجأة تهبّ فارستان مغوارتان من جوف الغابة. كانت ڤكتوريا إحداهما. وكانت ترتدي كسوة خضراء، وتمتطي فرس القصر الشهباء. تلقي نظرة متسائلة حول ما يحدث من دون أن تلمس قدمها الأرض.

وهنا يتّخذ يوحنّا قراراً: يتسلّق السدّ، ويفتح محبس المياه، وشيئاً فشيئاً يأخذ الضّجيج في الخفوت ويتوقّف الطاحون.

–لا.. اتركه يدور، يخاطبه أوطو بصرامة، لماذا فعلت هذا؟ قلت لك اتركه.

– هل أنت من شغّل الطّاحون؟، تسأل ڤكتوريا.

– نعم، يجيب ضاحكاً، لماذا إيقافه؟ لماذا عدم تركه يعمل؟

– لأنه فارغ، يوضح يوحنّا لاهثاً، وهو يرمقه شزراً، هل تفهم؟ الطاحون فارغ.

– أرأيت، قال لك إنه فارغ، تكرّر ڤكتوريا.

–كيف يمكنني معرفة ذلك؟، يصرخ أوطو ضاحكاً بحماقة، ولماذا هو فارغ؟ أليس هناك قمح؟

– إلى الجحيم!، يحسم أحد أصدقائه الأمر.

يمتطي الفتيان جيادهم، وقبل أن يختفوا، يلتمس أحدهم من يوحنّا عدم مؤاخذتهم.

كانت ڤكتوريا آخر من غادر المكان، ثم عادت بعد ذلك بقليل:

– من فضلك يوحنّا، اسأل والدك أن يقبل أسفنا على ما حدث الليلة.

– كان والدي أكثر حِلماً مما ظنّ الفتى نفسه، أجاب يوحنّا.

– عم، بالطبع، ولكن..، أنت تعرف أوطو: دماغه مملوءة دائماً بالأفكار المجنونة.. لم أرك منذ مدّة، يوحنّا؟

رفع بصره نحوها غير مصدِّق أذنيه. كيف أمكنها أن تنسى حدث الأحدِ المنصرمِ، أحد نصرِه؟

– رأيتك يوم الأحد على رصيف الميناء...

– آه، بالفعل، حقّا. من حسن حظِّك أنَّك استطعت مساعدة الضابط في إنقاذ الفتاة. أنت من عثر عليها، أليس كذلك؟

– نعم.

ثمّ وكأنها تذكّرت تفصيلاً مهمّا:

– أو أنَّك أنقذتها بمفردك؟ عموماً، لم يعد لهذا أهمية الآن. أعتمد عليك في إبلاغ رسالة اعتذار إلى أبيك. ليلة سعيدة.

twitter @baghdad_library

حيّته بإيماءة من رأسها، ابتسمت وأخذت تبتعد.

بعدما غابت عن ناظريه، توجّه يوحنّا نحو الغابة حزيناً وليس على ما يرام. وكانت المفاجأة أن وجد ڤكتوريا هناك، وحيدة، مستندة إلى شجرة، منخرطة في نحيب خافت. هل سقطت من على الفرس الشهباء؟ هل جُرحت؟ وتقدّم نحوها قلقاً:

– هل أصابك مكروه؟

خطت نحوه بيدين ممدودتين ونظرات متهلّلة، ثم توقّفت فجأة وأنزلت يديها مجيبةً:

– لا، لا شيء؛ تمشّيت على قدميَّ وتركت الفرس ترجع إلى البيت بدوني... يوحنّا، لا ينبغي أن تنظر إليّ هكذا. أعلم أنّك كنت قريبا من البِركة، تراقبني، ماذا تريد مني؟

– ماذا أريد؟! لا أفهم، تمتم يوحنّا.

– كم هي واسعة كفّك، قالت فجأة وهي تدفن كفَّها في كفّه، واسعة جداً... وقد لفحتك أشعة الشمس من رأسك حتى أخمص قدميك؛ أنظر. لك جلد بندق، هو ذاك، بندق.

همّت بأن تمسكه من ذراعه، لكنّها جمعت ذيل كسوتها وحسمت الحوار:

– لم يحدث لي شيء. أردت، فقط، أن أعود إلى البيت مشياً على قدميّ. ليلة سعيدة.

عاد يوحنّا إلى المدينة من جديد. وسالت الأيام والأعوام، فترة زمنيَّة طويلة وثريّة بالاجتهاد والأحلام، بالفروض المدرسيّة والأشعار. كانت بدايته بنشر قصيدة «إستِر» Esther «اليهودية التي تمكّنَت من أن تصبح في زمن ما ملكة فارس» منحته هذه القصيدة صفة المؤلِّف وحقوقه. قصيدة ثانية عنونها بسبُل الحبّ، يسردها قسّ يدعى ڤيندِت Vendt، وجلبت له بعض الشهرة.

ولكن، ما الحبّ، على وجه الحقيقة؟ريح تداعب الورود؟ لا، إنّه حِمَمٌ تسيل عبر أحشائنا، نغم جهنميّ يعبث حتى بقلوب العجائز. هو الأقحوانة التي تنفتح عندما يقبِّل اللّيل، شقائق نعمان تنغلق مع أوّل نفس وتموت بمجرّد ما نلمسها!

هذا هو الحبّ.

يستطيع أن يهزم إنساناً، ثم يرفعه من جديد ليعلِّمه بمكواة متّقدة حمرةً. يستطيع أن يلفحني اليوم، ويلفح الآخر في اللّيلة الموالية، لأنه عابر سبيل. ولكن، في مقدور الحب أيضاً أن يكون وفيّاً، فيعلق مثل خاتم مصون، أو يَحرِق بنار لا تُطفأ حتى الموت. ذلك لأنه خالد. ما الحبّ إذن؟ ليلة صيف بِسماءٍ تتلألأ نجوماً على أرضٍ عطرة. ولكن، لماذا يشجّع الصّائم على أن يسلك سبلاً خفيّة؟ لم يُكره العجوز على أن يقف على أطراف بنانه في غرفته المنفردة؟

لأن الحبّ يغيّر قلوب النّاس على هذه الأرض الخصبة

twitter @baghdad_library

الفاحشة حيث تنبت فطريات سرِّية وقحة. أو ليس الحبّ هو الذي يغري النّاسك باختراق الحدائق الموصدة ليلاً ليختلس النظر عبر النافذة إلى الحسناوات النائمات؟! أليس هو من يفتن المؤمنات المخلصات ويجعل الأميرات الجليلات تحدن عن جادة الصّواب؟ بالحبّ أيضاً يمضي الملك وهامته على مستوى الأرض، نافضاً عن شعره غبار الطريق، متمتماً بكلمات بذيئة، ضاحكاً، مخرجاً لسانه.

هذا هو الحبّ.

لا، لا، ليس هذا فحسب، هو أيضاً شيء آخر: الحبّ وحيد. نزل إلى الدنيا في ليلة ربيعيّة بعدما لمح عينين، عينين.. نظر إليهما مليّاً، لثم فماً، عندئذ حدث ما يشبه الإصطدام في وجدانه ما بين نورين، اصطدام ما بين الشّمس ونجم آخر، فسقط في حضن تلك التي سحرته بعينيها، ولم يعد يرى أو يسمع شيئاً.

كان الحبّ أول كلمات الله، وأوّل فكرة جالت بخاطره.عندما أصدر أمره: «ليكن النّور»!

كان الحبّ. كلّ خلقه كان موفّقاً، ولم يشأ أن يغيّر فيه شيئاً. والحبّ الذي وجد في أصل الكون، كان أيضاً سيّدًا، غير أن سبله كانت مفروشة بالورود والدّم. أجل، بالورود والدّم...

يوم من سبتمبر.

أصبح هذا الشّارع المنزوي فضاء تجواله المفضّل: كان

مرتاحاً به، أيضاً، كما لو أنه في غرفته. هنا لا يلتقي بأحد أبداً. داخل الحدائق التي تحيط بكلِّ ممرٍّ كانت الأشجار تلمع بفعل أوراقها الحمراء والصّفراء.

ماذا تفعل ڤكتوريا هنا؟ كيف استطاعت أن تصل إلى هذا المكان؟ ليس مخطئاً، إنّها هي، ربما كانت هي نفسها من لمح البارجة تعبر الشارع وهو يطّل من النافذة. أخذ قلبه يخفق بقوَّة. كان يعلم سلفاً أنّها في المدينة. أخبروه بذلك. غير أنّها ترتاد محيطاً ليس مخوَّلا لإِبن الطحّان أن يطأ عتبته. ثم إنّه لا يتجاوب مع أخيها ديتلف.

مَلَك زمام نفسه واستعدّ للقائها. ألم تتعرّف عليه؟ما بالها تمضي جادّة، غارقة في أفكارها، رافعة هامتها إلى السّماء؟.

حيّاها فأجابت بصوت ناعم.

– صباح الخير

لاشيء يوحي بأنها تنوي التوقّف. ابتعدت في صمت.

عند منتصف الشارع الصغير استدارت كعادتها «سوف أركّز بصري على الأرض ولن أرفعه» فكّر. ولم يرفع بصره، فعلا، إلاّ بعد أن قطع عشرات الخطوات.

إنّها تتأمّل واجهة دكّان.

ما العمل؟ التسلّل من أوّل منعطف؟ لماذا تبطئ في الوقوف

twitter @baghdad_library

هناك؟ ليس بواجهة الدكّان أشياء ذات قيمة: بعض قطع صابون أحمر، أكياس سميد، وقبضة نواقيس قديمة.. ربّما أمكنه أن يخطو خطوات أخرى قبل أن يستدير. عندئذ فقط لمحته، وأقبلت نحوه، في عجالة، بخطوات سريعة، كما لو أَنّها كانت بحاجة إلى كثير من الشجاعة لتقرّر. كان نفَسها متقطّعاً، وأخذت تبتسم بعصبية قبل أن تحيّيه:

– صباح الخير، أنا سعيدة بلقائك.

يا إلهي، قلبه! توقّف نبضه. إنه يرتعش. يرغب في أن يقول شيئاً لكنّه لا يستطيع: وحدهما شفتاه تتحركان من دون أن يصدر عنهما أي كلام. ثمة رائحة عطر تفوح من ملابسها، من كسوتها الصّفراء . أين كان هذا البريق المشعّ من فمها؟ لم يستطع تمييز ملامحها، ولكنَّه تعرّف على كتفيها الرّشيقين وأبصر كفّها الجميلة التي تحُكم قبضة مظلّتها. كفّها اليمنى، المُخَوْتمَة.

لم ينتبه في الحال إلى مغزى ذلك، ولم يشعر بأيّ إحساس مسبق. كانت كفّها رائعة الجمال!

– أنا في المدينة منذ أسبوع غير أنّني لم أرك. أو بالأحرى رأيتك مرّة واحدة. في الشارع؛ قال أحدهم أنّك كنت أنت. كبرت كثيرا!

– كنت أعرف أنَّك هنا، همس ثم أضاف، أتفكِّرين في البقاء طويلاً؟

– لا، أيّاماً معدودات فقط. عليّ أن أعود الآن.

– أشكرك لأنكِ سمحتِ لي بتحيّتك.

– أخشى أن أضلّ الطريق، استأنفت كلامها، وبعد فترة صمت، أنا أقيم الآن مع أمين القصر، تعرف الطّريق إلى منزله، أليس كذلك؟

– إذا سمحتِ لي، رافقتك إلى هناك.

واتخذا طريقهما...

– هل أوطو في البيت؟

– نعم، أجابت ببساطة.

خرج بعض الأشخاص من الباب وهم يحملون صندوق بيانو، حتى قطعوا الطريق أمامهما. خطت ڤكتوريا خطوتين عن شِمالها، وعندما اصطدم وركها بورك يوحنّا، التفت نحوها.

– آسفة، اعتذرت.

أحدث هذا الاصطدام في روحه شعورا مفعما بالانتشاء، كان في مقدوره أن يستنشق عبير نفَسها الزكيّ. كان قريبا جدّا من وجنتها.

– أرى أنك تضعين خاتما في إصبعك، استأنف مبتسما ثم أضاف بلامبالاة، أتسمحين لي بأن أهنّئك؟

twitter @baghdad_library

بماذا سوف تُجيب؟ تحاشى النّظر إليها وحبس أنفاسه.

– وأنت، ألم تضع خاتما بعدُ؟ لا، حقّا، ومع ذلك، أكّدوا لي... نسمع عنك أشياء كثيرة الآن، حتى أنَّ بعضها مكتوب في الجرائد.

– إنها تلك القصائد القليلة التي نظمتها، لكنك لم تقرئيها بطبيعة الحال؟

– ألم تكن مجموعة شعرية بأكملها؟ يبدو لي أن...

– نعم، كان ثمّة ديوان شعريّ صغير.

وصلا إلى حديقة عمومية واستقرّت على مقعد. وعلى الرغم من أنّها مقيمة مع أسرة أمين القصر، لم تكن في عجلة من أمرها. وبقي واقفا أمامها.

– اجلس، قالت وهي تمسكه من كفّه، ولم تطلقها إلاّ بعد أن استقرّ بجنبها.

فكّر: « الآن أو إلى الأبد». وحاول أن يبادلها أطراف الحديث بنبرة مرحة هادئة، ابتسم، أخذ يتطلّع إلى الفراغ، ثم استأنف:

– أنت مخطوبة إذن، و تجتهدين لإخفاء الأمر عنّي؟ ألست جارك؟

– ليس عن هذا بالضبط أرغب في التّحدث إليك اليوم، أجابت بعد لحظات تفكّر.

و اتّخذ سمات الجديّة:

– حسنا، أفهم.

صمتٌ.

– أعرف جيّدا أنّه ليس لديّ أيّة فرصة... يعني أنَّني لن أستطيع أبداً... لم أكن غير إبن طحّان، بينما أنت... وبطبيعة الحال، لم يكن في المستطاع أن تسير الأمور بشكل آخر، حتى أنني أتساءل كيف أجرؤ على الجلوس بالقرب منك، والحديث عن هذا؛ كان عليّ أن أبقى واقفا وأنا أحدِّثك، وربّما من الأفضل أن أجلس عند ركبتيك. ذاك هو مكاني الطبيعي. لكن وكأن... كلّ سنوات الغياب هذه أكسبتني شجاعة... أعرف أنني لم أعد طفلاً، وأنّك لن ترضي الزجّ بي في السّجن، حتى لو تمنّيت ذلك. لأجل هذا أتجرأ على البوح بكلّ هذه الأمور. ولكن، لا تؤاخذيني، أو إنّني سوف ألوذ بالصّمت.

– لا، تكلّم، قل ما تريد قوله.

– هل أستطيع؟ كلّ ما أريد؟ بشرط ألاّ يحول خاتم خطوبتك بيني وبين ذلك؟

– لن يفعل على الإطلاق.

– كيف؟ ولكن... إذن؟ ليباركك الله ڤكتوريا، وإذن فأنا لست مخطئا؟

انتفض واقفا ثم انحنى لينظر في عمق عينيها:

twitter @baghdad_library

– لا يعني الخاتم، إذن، أي شيء بالنسبة إليك، أليس كذلك؟

– إجلس.

و نفّذ.

– لو تعلمين كم فكّرت فيك! لم يكن، بحقّ الله، أي مكان لفكرة أخرى في قلبي، أبداً، أبداً. بالنّسبة إليّ، لا وجود لأحد من أولئك الذين كنت أرى أو أعرف، باستثنائك أنت. لم أكن أعرف التفكير إلّا في شيء واحد: «ڤكتوريا هي الأجمل من بين أروع نساء العالم، وأنا أعرفها، الآنسة ڤكتوريا». يعني هذا أنّني تصوّرت بشكل كليّ أن لا أحد تتجاهلينه مثلي؛ ولكنّني كنت من معارفك، وكان هذا كثيراً بالنسبة إلي، أعرف أين تعيشين، ومن يدري، ربما حدث لك مرّة أن فكّرت بي؟ و لكن، بطبيعة الحال، لم أكن أدور بخلدك؛ ولكن غالباً في المساء، وبينا أنا جالس إلى مائدتي، أتخيّلك تذكرتني فجأة، وإذن، آنسة ڤكتوريا، وكأنّ أبواب الجنّة تشرّع في وجهي، أنظم أشعارا من أجلك، أنفق كلّ نقودي في شراء ورود لك أضعها في مزهريّة. كلّ قصائدي مهداة لك، باستثناء تلك التي لم تُطبع بعد. لا شكّ في أنك لم تقرئي الأشعار المنشورة. استهللت إبداعا مهمّا. يا إلهي، كم أنا مدين لك بالشكر، أنا مملوء بك، ڤكتوريا، وهذه كلّ سعادتي. كلّ يوم أسمع أو أرى شيئا يفكّرني بك، كلّ يوم، كلّ ليلة. كتبت اسمك في سقف سريري وطاولة تعبّدي، ولكن الفتاة التي تنظّف البيت لا يمكنها أن تراه. كتبته بحروف صغيرة لكي يكون لي بمفردي. هذا يشحنني بهجة عارمة.

واستدارت نحوه لحظة. فتحت صدريتها وأخرجت قصاصة جريدة..

– انظر، قالت لاهثة، قصصتها واحتفظت بها. يمكنني أن أعترف لك، أقرأها صباحاً مساءً. كان أبي أوّل من اطّلع عليها. ولجأت إلى النافذة لأقرأها. «أين هي؟ لا أجدها».. قلت بمكر وأنا أقلّب صفحات الجريدة. لكنني كنت قد عثرت عليها واستأنفت قراءتها من فترة. وكنت سعيدة حقّاً.

كان عطر صدرها الخفيف ينبعث من القصاصة، بسطتها وأرته إياها؛ كانت قصيدة من أولى منظوماته، أربعة أبيات مهداة إلى ڤكتوريا، فارسة الحصان الأبيض، بوح قلبه البسيط المتيّم، الإِنفجار الذي حار في كيفية احتوائه، والذي يلمع أشبه ما يكون بنجمة وليدة.

– نعم، أنا من كتب هذه القصيدة، منذ زمن بعيد، في ليلة رقصَ الحور خلالها أمام نافذتي بينما كنت أشتغل. أحقاً احتفظت بها؟ شكرا. وتخبئينها من جديد! آه! هتف مأخوذاً... ثم همس:

– من يصدّق أنّك قريبة منّي في هذه اللّحظة؟! أحسّ بذراعك جنب ذراعي، كم أنت مشعّة! عندما كنت وحيدا، غالباً ما كنت أفكّر فيك، وكلّما فعلت أصابتني الرّعشة، ولكنّني الآن أحس بالدّفء. آخر مرّة ذهبتُ فيها إلى البلدة، كنت خلاّبة، غير

twitter @baghdad_library

أنّك الآن أجمل بكثير... السرّ في عينيك ڤكتوريا، في حاجبيك، في ابتسامة ثغرك، لا، لا أعرف، السرّ فيك بأكملك.

وابتسمت له، بجفنين نصف مغمضين. عيناها الزرقاوان لا تزالان تبدوان أكثر عتمة أسفل رموشها الطويلة. كانت بالنسبة إليه صورة السّعادة المثلى... وبحركة غير إرادية قرَّبت يدها إليه:

– شكرا، تمتمت.

– لا ڤكتوريا، لا تشكريني.

ومال نحوها بكلّ كيانه؛ كان يرغب في أن يبوح بأكثر من هذا، غير أنّه، ثملا من البهجة، لم يكن أمامه إلاّ أن يوضّح مغزى سلسلة من الهتافات الملتبسة:

– لكن، ڤكتوريا، لو تحبينني قليلا... لا أدري، انطقي أنَّك تحبينني، حتى ولو لم يكن هذا صحيحا. أتوسّل إليك.أعدك بأن أصبح شخصاً... شخصاً مهمّاً، بل استثنائيا. لا تعلمين ما أستطيع القيام به؛ أحياناً أفكِّر في الأمر، أعرف أنَّ بداخلي طاقات كثيرة غير مستغلَّة. غالباً، ليلاً، ينتابني شعور بأنَّني أفزع من نفسي. أتمشى داخل غرفتي مترنّحاً بفعل الرؤى التي تخترقني. ثمّة وجود لشخص بالغرفة المجاورة أحرمه من النّوم، وإذن يدق على الحائط. وفي الفجر يقتحم غرفتي هائجاً. لا يسفر الأمر عن شيء بطبيعة الحال. بل إنّني أسخر منه، مادمت فكّرت بك طوال اللّيل، وانتابني إحساس قويّ بوجودك جنبي. أتوجّه

إلى النّافذة وأنا أدندن، يطلع النّهار، الحور تتأرجح بفعل الرياح «تصبحين على خير» أهتف للنّور الوليد من أجلك. أفكّر: «إنّها نائمة الآن. تصبحين على خير. ليباركها الله» غير أنني لم أتخيّل قط أن تكوني بهذه الرّوعة. عندما تذهبين، سوف أذكرك، تماماً كما أنت الآن. سوف أذكّر نفسي بهذا جيّدا.

–ألن تعود إلى بيتك؟

– لا، لم أنته بعدُ. بلى، سوف أعود إلى بيتي. أنا ذاهب، الآن. لم أنته من كلامي بعدُ، ولكنني مستعد أن أفعل أيّ شيء. هل يحدث وتتجوَّلين في حديقة المنزل؟ هل تذهبين إليها مساء؟ هكذا، يمكنني رؤيتك، ربّما نتبادل التحيّة ليس إلاّ. آه، لو تحبِّينني قليلاً، لو تأذنين لي... قولي إذن... حقّقي لي هذه الأمنية... هل تعلمين أنَّ ثمة نخلة لا تزهر أكثر من مرة واحدة في حياتها، على الرغم من أنها تعيش زهاء ستين سنة تقريبا: إنها زهرة «التاليبوت» Tallipot أنا مثلها، أزهر الآن. سوف أجني أموالاً طائلة وأعود إلى موطني. سأبيع كلّ كتاباتي، ثم إنَّني بصدد إنجاز عمل مهمّ. سوف أسلِّمه للناشر، على الفور ومنذ صباح الغد، كلّ ما حرّرت منه.يدرّ عليّ هذا بعض المال. هل ترغبين في أن أنصرف؟

– نعم.

– شكراً! شكراً! اغفري ضخامة أملي، مطلق صدقي، ما أجمل أن يكون إيمانك قويّاً. هذا أجمل يوم في حياتي.

twitter @baghdad_library

رفع قبعته ووضعها بالقرب منه. ڤكتوريا تنظر من حولها، ثمّة وجود لسيدة تعبر الشارع غير بعيد عنهما، سيّدة أخرى تقبل حاملة سلّة تحت يدها... غدت ڤكتوريا أكثر عصبية، وشرعت تبحث عن ساعتها.

– عليك أن تذهبي إذن؟، سأل، قولي شيئا قبل أن ترحلي، دعيني أسمعك... أنا أحبّك، ها قد قلتها... كلّ شيء أصبح رهن جوابك... لك كلّ السُلطة عليّ... بماذا سوف تجيبين؟

ويعدما أيقن من خرسها أطرق بدوره برهة، ثمّ أضاف متوسّلا:

– لا، لا تقولي شيئاً.

– ليس هنا، نطقَت، هناك.

واتّخذا طريقهما إلى حيث أشارت.

– يقولون أنَّك سوف ترتبط بالفتاة التي أنقذتها من الغرق. ما اسمها؟

– هل تقصدين كاميلا؟

– كاميلا سيير، نعم. يقولون إنَّك سوف تتزوجَّها؟

– لماذا هذا السؤال؟ إنها لا تزال طفلة صغيرة. استقبلوني في بيتهم أكثر من مرة. قصر حقيقي حيث كلّ شيء كبير وبهيّ، كما عندكم تماماً. لكن كاميلا ليست إلاّ طفلة.

– فتاة في الخامسة عشر ربيعاً، التقيتها مرّة أو مرَّتين. فتاة لطيفة فعلاً. وجميلة جداً.

– لا أنوي الارتباط بها، حسم الأمر.

هي نخلة ذات أوراق عريضة تنبت وتنمو في جنوب الهند. (المترجم)

تفرّس فيها، بينما عبرت وجهه تكشيرة:

– ولكن، لماذا تقولين هذا الكلام الآن؟ لماذا ترومين تحويل انتباهي؟

وتقدّمت بخطوات سريعة من دون أن تردّ عليه. وعندما وصلت إلى منزل الأمين، أمسكت بيده وجذبته إلى البهو.

– لا أرغب في الدخول، احتجّ مضطرباً بعض الشيء.

تجاهلت تعليقه، ضغطت على زرّ الجرس وهي تستدير نحوه.

– أحبّك، قالت بتأثّر شديد، أتفهم؟ أنت من أحبّ.

نزلت الأدراج الثّلاثة التي تفصلهما وطوّقت جيده بذراعيها قبل أن تقبّله. كانت ترتعش وهي منجذبة إليه كليّاً.

– أنت من أحبّ، كرّرت.

وفُتح الباب. وتحرّرت منه في عجلة وهي تصعد الأدراج مسرعة.

twitter @baghdad_library

صبيحة يوم من سبتمبر. يطلع النهار أزرق حائرا، أقرب ما يكون إلى الارتجاف. حور الحديقة تخفق على مهل. تنفتح نافذة ويستند إليها رجل وهو يدندن. لم يكن يوحنّا يرتدي ملابس داخلية. ينظر إلى العالم مشدوها مثل معتوه أثملته السّعادة طوال اللّيل. وفجأة، يستدير نحو الباب؛ ثمة من يطرقها.

– ادخل، صرخ.

وظهر رجل.

– صباح الخير! خاطب المعتوهُ الزّائر، وهو كهل شاحب من فرط الغضب، يمسك بيده مصباحا،

جئت أسألك، سيد موليير، السيد يوحنّا موليير، إن كنت تعتقد في أنّ هذا أمر معقول.

وبما أنه كان متوتّراً، فقد استعصى عليه التّعبير بوضوح..

–لا، أجاب يوحنّا، أنت محقّ. كتبت قليلا، أُلهمت في يسر؛

أنظر، كتبت كلّ هذا؛ كانت ليلتي مثمرة، وقد انتهيت الآن. فتحت نافذتي في التوّ لأنشد.

– بل كنت تعوي! لم أسمع في حياتي، قطّ، شخصاً ينشد بتلك الطريقة. أتفهم؟ وفي منتصف اللّيل!

وجمع يوحنّا بعض الأوراق من على الطاولة، كمشة أوراق، صغيرة وكبيرة مختلطة.

– ولكن، انظر، صرخ، قلت لك أنني لم أشتغل أبداً أفضل من اليوم! كان إلهامي أشبه ما يكون ببرق ممتدّ. مرّة، شاهدت واحداً يتلو سطراً تلغرافيا. يا إلهي، مثل حقل ناري! على نفس الشكل سالت الكلمات على الورق هذه الليلة. ماذا أقول لك؟ لا أظنّ أنك سوف تعاتبني، الآن، وقد بحت لك بكلٍّ شيء. كنت أعمل، جالساً إلى هذه الطاولة، بدون حراك. فكّرت بك، وحاولت ألاّ أحدث ضجيجاً حتى اللحظة التي سهوت فيها عن وجودك. كاد صدري يختنق، فقفزت واقفاً. ربما أكون قد انتفضت واقفاً مرَّة أخرى خلال الليل، وخطوت خطوات داخل غرفتي. كنت سعيداً.

– لم أسمعك هذه اللّيلة، قال الرّجل، ولكن ما لا يمكنني أن أغفره لك، هو أن ترفع عقيرتك بالزّعيق على مقربة من نافذتي، كما فعلت اللّحظة، وفي هذه الأوقات بالذّات!

– طيّب، هذا لا يغتفر. ولكنّني شرحت لك: شهدت ليلة لا تنسى.لا شك أنك تفهم. حدث لي البارحة شيء.. كنت أسير في

twitter @baghdad_library

الشارع، وإذا بي أصادف سعادتي، نجمتي العزيزة. اصغ إلي، أرجوك. فجأة، قبّلتني. كان فمها متورّداً وقد أسكرتني قبلتها. أحبّها. هل انقطع نفسك، ذات مرة، من شدّة الانفعال؟ كنت عاجزا عن التلفّظ ببنت شفة، قلبي يزعزع بنبضاته كلّ جسدي. عدوت مسرعاً نحو البيت ونمت على هذا المقعد. استفقت مع غروب الشمس: كانت روحي ثملة من الإِنفعال، وبدأت أكتب.

ماذا كتبت؟ كلّ هذا! كنت مهووسا بأفكار مدهشة، لذيذة. انفتحت السّماء في وجهي، مثلما يحرّر صفاء يوم صيفي العقل والوجدان؛ وبعد ذلك سقاني ملَك خمراً معتّقة في قوارير من فضّة... لو سمعت دقّات السّاعة؟ لو فطنت إلى انطفاء المصباح؟ هل يعينك المولى على الفهم! عشت تجربتي مرّة ثانية. في الشّارع وجدت نفسي من جديد مع تلك التي أحبّ، والكلّ يلتفت ليسترق النظر إلى حسنها. ولجنا الرياض الرحب حيث استقبلنا الملك. من فرط الفرحة، كنست الطريق بين يديه بقبعتي، التفت هو إليها، إلى حبيبتي، لأنها شابة وجميلة. نزلنا من جديد إلى المدينة، وكان كلّ تلاميذ المدرسة مفتونين بها، لأنها شابة وترتدي كسوة فاتحة الألوان. دخلنا بمجرّد وصولنا إلى منزل الأَجُرّ الأحمر. صعدت الأدراج خلفها وارتميت على ركبتي بين يديها. ثم قبّلتني.هذا ما عشته مساء أمس. أرأيت؟ لعلّك تسألني ماذا كتبت؟ أنشودة فرح متواترة، قصيدة للحياة، خلت عفريتة البهجة غافية تحت قدميّ عارية،ثمّ تمدّ جيدها الطويل نحوي ضاحكة.

– بصراحة، لست على استعداد لإطالة الحديث معك، قال الآخر منزعجاً، لن أكلّمك قطّ.

– انتظر، لو رأيت... لقد عبرَت الشّمس محيّاك. رأيتها اللّحظة، إنّه المصباح الذي أرسل شعاعا من شمس على جبهتك. كاد ألاّ يكون شيئا، لكنني لمحته. أعترفُ، فتحت النّافذة وغنّيت بصوت مرتفع. أحسست بنفسي صديق كلّ الناس. هذا يحدث أحيانا. نحيد عن جادة الصّواب. كان عليّ أن أدرك أنّك مازلت تغطّ في النوم...

– كلّ المدينة كانت تغطّ في النّوم.

– نعم، لا يزال الوقت مبكّرا. أريد أن أقدّم لك شيئاً. هل تقبل هذه الهديّة؟ إنَّها من فضة، هديّة فتاة أنقذتها من الغرق ذات مرّة. أرجوك أن تقبلها! تحوي عشرين لفافة تبغ.لا تريد؟ آه، لا تدخّن؟! أنت مخطئ، عليك أن تكتسب هذه العادة. هل يمكنني زيارتك غداً لأقدِّم اعتذاري؟ أرغب، حتما، في أن أفعل شيئا لصالحك، لعلّك تسامحني...

– ليلة سعيدة.

–ليلة سعيدة.سوف أخلد إلى النوم الآن. أعدك. لن تسمع ولو صوتاً واحداً يصدر عن هذه الغرفة، سوف أحرص على أن أتصرَّف بشكل لائق.

وذهب الرجل لحال سبيله، غير أن يوحنّا فتح الباب بقوَّة وأضاف:

twitter @baghdad_library

– نسيت... سوف أغادر قريباً. لن أزعجك بعد ذلك أبداً. سأرحل غداً. نسيت أن أخبرك بذلك.

لم يرحل. أشياء كثيرة شغلته عن ذلك: التزامات تشريفيّة، مشتريات وأداءات... المساء يهيِّئ المكان للصباح وهو يلفّ يلفّ مثل تائه...

انتهى به المطاف أخيراً عند بوابة منزل الأمين، فدقّ الجرس.

هل كانت ڤكتوريا موجودة؟

لا، خرجت للسّخرة.

وضّح للخدم أنه والآنسة ڤكتوريا أبناء بلد، وأنَّها لو كانت موجودة لسمحت له بتحيّتها، فهو يريدها أن تحمل رسالة إلى أهله عندما ترجع..

انطلق في جولة إلى المدينة. ربما أسعفه الحظ في لقائها، أو لعلّه يلمحها على عربة حصان. تمشّى حتى أقبل المساء. ووجدها أخيراً أمام المسرح فحيّاها ضاحكاً. ردّت على تحيّته وحاول التقدّم نحوها، ولكن ما أن همّ بقطع الخطوات الفاصلة بينهما حتى اكتشف أنَّها ليست وحيدة: أوطو نجل الأمين يرافقها، وهو يرتدي بزّة ملازم أوّل! «ربما تخصّني بإشارة صغيرة من عينيها» فكّر يوحنّا، ولكنّها، على العكس تماماً، تستعجل دخول المسرح منحنية الرأس، قرمزية الوجه، وكأنّها تروم الاختفاء.

ربّما أمكنه رؤيتها داخل قاعة العرض؟ ابتاع تذكرة ودخل.

كان يعرف منزل أمين القصر، طبعاً، يمتلك الأمين بيتا مثل كلّ الأغنياء. وڤكتوريا موجودة هنا، أكثر روعة من ذي قبل، منشغلة بمراقبة الحضور.

أثناء الاستراحة، دنا منها يوحنّا وحيّاها، ردّت عليه بنظرة مفاجأة ثم حيَّته بحركة من رأسها.

– يمكنك أن تحصلي على كوب ماء من هنا، أعلن أوطو وهو يسحبها معه.

يراقبهما يوحنّا وهما يمرّان على مقربة منه، ويحاول أن يحجب نظراته. الناس يدفعونه متذمّرين من رسوخه في مكانه، بينما يلتمس يوحنّا منهم الأعذار بشكل آليّ من دون أن يتزحزح.

ولم يعد يراها..

عند عودتها، استقبلها بحفاوة عظيمة:

– إسمحي لي آنستي...، استهلّ كلامه.

وحضر أوطو، في الحال، وهو ينظر إليه من علٍ بازدراء ظاهر.

– إنّه يوحنّا، بادرت ڤكتوريا إلى تقديمه، ألا تذكره؟ تلتمس أخباراً عن والديك، أليس كذلك؟

كان وجهها هادئا بشكل رائع، ثمّ واصلت كلامها:

– الحقّ أنّني لا أعلم. أظنّ أنهما بخير جميعاً. حسناً، سوف أبلّغ الطحّان تحيّاتك.

twitter @baghdad_library

– شكرا لك. هل تنوي آنستي العودة قريبا؟

– مستقبلاً، نعم. حسناً، سوف أبلّغ تحياتك.

حيّته بانحناءة من رأسها، وابتعدت.

واقتفى يوحنّا خطواتها بنظراته من جديد على قدر ما استطاع، ثم غادر المسرح.

استأنف شروداً طويلاً، خطوات ثقيلة حزينة يغتال بها الزمن. في العاشرة بالضبط كان ينتظر بالقرب من منزل الأمين. أوشكت المسارح على إغلاق أبوابها، ولن تتأخّر. ربّما أمكنه فتح بوّابة عربة الأجرة، رفع قبّعته وتقديم فروض الإِحترام.. وصلت بعد نصف ساعة بالضبط. هل يملك البقاء هنا، قريباً من الباب، يواجهها مرّة أخرى؟ لا. ابتعد يجري من دون أن يلتفت. ومع ذلك أمكنه أن يسمع باب العربة وهو يفتح، ثمّ وهو يغلق بعدما دخلت. رجع ليطوف حول المنزل بخطى ثقيلة زهاء ساعة من الزمن.

لم يكن ينتظر أحداً، وليس لديه مهمَّة محدّدة ينجزها هنا. فجأة، فُتح الباب وظهرت ڤكتوريا على الرصيف. لم تكن تعتمر قبّعتها، فقط شال يطوّق كتفيها. كانت تبتسم بخجل وضيق:

– أتتأمّل؟، قالت مستهلَّةً الحوار.

– لا، أقصد نعم. أتأمّل. في النّهاية، لا. أتجوّل، هذا كلّ ما في الأمر.

– راقبتك تذهبين وتعودين بالقرب من البيت، ورغبت في أن... رأيتك من نافذتي، ينبغي أن أعود في الحال.

– شكراً لأنك جئت، ڤكتوريا. قبل أن تأتي، كنت في قمّة اليأس، وها قد تبدّد كلّ شيء. أغفري لي مواجهتي لك في المسرح؛ للأسف، طرقت باب الأمين أيضا رغبة في معرفة أحوالك. كنت أتوق للقائك طمعاً في معرفة قرارك، نيّتك الحقيقيّة.

– ولكنّك تعرفها. قبل البارحة قلت ما فيه الكفاية تلافياً لأيٍّ لبس.

– ومع ذلك، لا تزال الشكوك تراودني.

– كفى كلاماً عن هذا. قلت ما فيه الكفاية، ربّما أكثر من اللازم، والآن أسبِّب لك الألم. أحبّك. لم أكذب عليك قبل البارحة، ولا أكذب عليك اللّحظة أيضاً. غير أنّ أشياء كثيرة تفرّقنا. أقدِّرك حقّاً، وأكلِّمك بكامل رغبتي، أكثر من الآخرين، ولكن... لا أجرؤ على البقاء هنا أكثر. قد يرصدوننا من الأعلى. يوحنّا، ثَمَّة وجود لأشياء كثيرة تجهلها: لا تطلب منّي أن أفصح لك عنها. فكّرت طوال الليل والنهار؛ كنت صادقة في المرّة الفائتة. لكن الأمر سوف يكون مستحيلاً.

– ما الذي سوف يكون مستحيلاً؟

– كلّ شيء.اسمع، يوحنّا، لا تجبرني على إنكار كلّ شيء...

– حسناً، لن تغتمّي بسببي! وإذن، غرّرت بي ليلة ما قبل

twitter @baghdad_library

البارحة.. التقيتني في الشارع، وكنت رائقة المزاج و...

استدارت وهمّت بالدخول..

– هل صدر عني سلوك أغضبك؟ سأل.

بدا وجهه الشّاحب غير مميّز:

– أردت أن أقول، كيف أمكنني أن أبدّد....؟ هل أفسدت شيئاً خلال هذين اليومين والليّلتين؟

– لا، ليس هذا. فكّرت وحسب. ألم نفعل؟ كان هذا دائماً مستحيلاً، أنت تعلم. أحبّك كثيراً، وأقدّرك كثيراً...

– وأنا، أيضاً، معجبٌ بك!

نظرت إليه. جرحتها ابتسامته فاسترسلت مغتاظة:

– في النهاية، ألا تفهم أنَّ أبي سوف يرفض ارتباطك بي؟ لماذا تضطرني إلى قول هذا؟ أنت تعلم هذا جيّداً. ماذا سيكون مصيرنا آنئذ؟ ألست على حقّ؟

– بلى،، أجاب بعد صمت طويل.

– ثمّ إنّ هذا ليس السبب الوحيد... ما كان عليك أن تتبعني إلى المسرح، لقد أخفتني. لا تفعل ذلك أبداً.

– حسناً.

أمسكت بيده واستأنفت:

– ألا تقوم بزيارة قصيرة لوالديك؟ سوف أنتظرك بسرور. أحسّ بالبرد، لكن كفّك تدفئني. عليّ أن أدخل الآن. ليلتك سعيدة.

كان الشّارع منحدرًا، بارداً، رمادياً، أشبه ما يكون بحاجز رملي. طريق بلا نهاية. التقى بصبي يبيع وردا مكسوراً، ذابلاً. نادى عليه. ابتاع منه واحدة ونفحه قطعة نقدية صغيرة من فئة خمس كورونات ذهبيّة، كانت بمنزلة ثروة حقيقيّة ظفر بها الصبيّ. بعد ذلك بقليل، لمح ثلّة من الأطفال تلعب بالقرب من أحد الأبواب. في ركن منعزل يجلس طفل صغير في العاشرة من عمره، يتأملهم وقد بدت عيناه الزرقاوان أشبه بعيني عجوز. كانت وجنتاه محفورتين، وكان يرتدي معطفاً بمربعات، وقبّعة من الكتّان، أو بالأحرى بطانة قبّعة يخفي تحتها شعره المستعار: ثَمَّةَ وجود لمرض جلديّ علّم جبهته إلى الأبد. من يثبت أن روحه ليست محطّمة، ذابلة هي الأخرى؟

يراقب يوحنّا كلّ هذا، على الرغم من أنّه لا يعلم أين يوجد على وجه التحديد، ولا في أي اتجاه يسير. وبدأ هطول المطر، لكنّه لم يلق إليه بالاً، ولم يفتح المظلّة التي كان يحملها منذ الصباح. عندما وصل إلى الحديقة، ذهب ليجلس على مقعد. وعندما تضاعفت غزارة الأمطار، فتح مظلته بدون وعي منه، ودون أن يهبّ واقفاً. كان ثمّة تعب عظيم يجثم على قلبه، وكان دماغه تائهاً وسط ضباب من نوع خاص، هذا ما جعله يغمض عينيه وينام على الفور.

twitter @baghdad_library

بعد غفوة قصيرة، أيقظته أصوات بعض المارة فاستأنف تسكّعه في المدينة. كان ذهنه صافياً الآن. وتذكّر جيّداً آخر الأحداث، حتى الطفل الذي نفحه خمس كورونات في مقابل الورد. تخيّل فرحة الصبيّ عندما يكتشف أنّ قطعة النقد ليست من فئة الخمسة وعشرين "أوغاً"[1] وإنّما خمس كورونات،

ومن الذهب! بارك الله فيك صغيري!

كان الأطفال قد التحقوا بالفناء ليتابعوا لعبهم بعدما طاردتهم الأمطار، خاصة لعبة الأوتاد. والعجوز ذو العشر سنوات، صاحب الوجه المشوّه، ينظر إليهم دون أ ن ينبس بكلمة. من يدري، ربما يخبّئ في غرفته بهجة سريّة، دمية، درّاجة أو بلبلاً. ربّما لم يخسر كلّ شيء في حياته، ربّما لم يمت الأمل في قلبه الذابل بعدُ! وظهرت أمامه، فجأة، امرأة جميلة نحيفة، فانتفض ماشياً، ثم توقّف. لا يعرفها. طلعت من شارع عرضيّ وابتعدت بخطوات واسعة بدون مظّلة، على الرّغم من الأمطار الغزيرة. تبعها، نظر إليها، ثم ذهب لحال سبيله. كم كانت شابة وجميلة! سوف تتبلّل لامحالة وتصاب بالزّكام، لكنه لم يجرؤ على الاقتراب منها. ولكي لا تعاني هذه التجربة بمفردها أغلق مظلّته! وعاد إلى منزله بعد منتصف الليل.

كانت تنتظره على الطاولة رسالة، أو بالأحرى بطاقة دعوة

(١) أصغر وحدة نقدية في العملة النرويجية (المترجم)

آل سيير إلى منزلهم بعد غدٍ مساءً. سوف يلتقي هناك بمعارف كُثر، ربما تكون ڤكتوريا من بينهم. ڤكتوريا فتاة القصر «مع تحيّاتنا الصّادقة».

نام على مقعده. بعد ساعات قلائل أيقظه البرد. نصف نائم، مرتعش من فرط التّعب، مهزوم بفعل انتكاسات اليوم الكثيرة. حمل قلمه ليعتذر عن الحضور. أوشك أن يرسل الجواب عبر البريد عندما تذكّر أن ڤكتوريا من بين المدعوين. ومع ذلك لم تخبره؛ لعلّها تخشى حضوره، وتحاول أن تتجنّب لقاءه أمام الجمهور الغفير.

مزقّ رسالة وكتب أخرى يشكر فيها مستضيفيه: سوف أحضر بكلّ سرور.

وانتابه شعور مفاجئ. وأحسّ بنفسه مذلولاً وسعيداً في الوقت نفسه. و بدأت كفّه ترتعش. لماذا لا يذهب؟ لماذا عليه أن يختبىء؟ كفى! نزع بهياج حزمة أوراق من يوميته، وألقى بنفسه، هكذا، في أتون المستقبل: أخذ يتخيّل نفسه في قمّة الفرح وأنَّ عليه أن يغتنم هذه اللحظة، فيشعل غليونه، ويقضي وقتاً ممتعاً وهو مسترخٍ على مقعده.

كان غليونه غير سالك، وبحث عن سكين لينظِّفه بدون جدوى. وبعدما لم يجد شيئا فكّ أحد عقربي السّاعة المنزوية في ركن الغرفة. فِعلُ التخريب هذا أراحه قليلا، بل إنه حفّز لديه،

twitter @baghdad_library

أيضاً، ضحكا جنونياً، ثم أخذ يبحث من حوله عن شيء آخر يكسره.

ارتمى، أخيراً، على فراشه بملابس مبتلّة ونام.

عندما استيقظ، متأخّرا جدّا، كانت الأمطار لا تزال تهطل. لم يكن صافي الذهن بعدُ، وكانت بقايا الأحلام تختلط بذكريات الأمس؛ ليس به حمى. على العكس، خفّت لفحات الحرّ، وأخذ يستشعر حالة من الانتعاش، كأنّه تمشى ليلة بأكملها وسط غابة دافئة رطبة، وأنه وصل أخيراً إلى ضفّة النّهر.

ثمّة طرق خفيف على باب البيت. أقبل ساعي البريد يحمل رسالة له. فتحها. نظر إليها وقرأ من دون أن يفقه شيئا... كانت كلمة قصيرة من ڤكتوريا، مكتوبة على نصف ورقة: نسيت أن تخبره بأنَّها سوف تذهب في المساء عند آل سيير؛ ترغب في أن تقابله هناك لكي تشرح له حقيقة الوضع، لتلتمس منه ألاّ يفكّر فيها بعد الآن، أن يواجه الأمر برجولة «آسفة على الورقة الرديئة التي دوّنت عليها رسالتي. مع تحياتي».

غادر البيت. ذهب ليتناول طعاما، ثم رجع ليدبّج خطابا لآل سيير: ليس بإمكانه الحضور إلى الحفل، سوف يحاول زيارتهم في وقت لاحق. غداً مثلا!

بحلول فصل الخريف، كانت ڤكتوريا عادت إلى البلد. واستعاد الشارع الصغير مظهره الهادئ. في كلّ ليلة يلتهب النور في غرفة يوحنّا. يشتعل مصباحه مع أولى تباشير الفجر، ويطفئها مع طلوع النهار. يواصل إنجاز إبداعه العظيم والألم رفيقه.

و تسيل الأسابيع والشهور. كان وحيداً. ولم يسع بحثا عن رفيق، ولم يذهب أبدا عند آل سيير. غالبا ما كانت مخيّلته تعبث به، وتوحي له بحشو أثره الإبداعي بحكايات غريبة، اضطر في كثير من الأحيان إلى حذفها. كانت مثل هذه الأمور تؤخّر عمله كثيراً.

ثمّة ضجيج غير منتظر يولد من صمت اللّيل، ضوضاء عربة تعبر الطريق، حلّقت على إثرها أفكاره:

—انتبه، افسح الطريق أمام السيّارة.

لماذا؟ لماذا الانتباه إلى هذه السيّارة تعبر؟ إنّها الآن في

twitter @baghdad_library

ركن من الشارع حيث يوجد شخص بدون معطف أو قبعة يرتمي إلى الأمام. السيّارة تصدمه بكلّ قوة جهة الرأس. وطُرِح الرّجل أرضاً، مجروحاً، ميّتاً. هذا الرّجل يرغب في الموت.

هذا شأنه. لن يقفل أزرار قميصه في الصّباح، أو يربط خيوط حذائه. سوف يمضي وصدره مشرّع للهواء. عار وشاحب. سوف يموت.

كتب رجل على فراش الموت رسالة إلى صديقه، دعاء قصير وحسب. بمجرّد ما يختفي، سوف يترك الرّجل هذه الكلمة، مؤرّخة وموقّعة. وبرغم علمه أنه سوف يموت بعد ساعة، فقد تضمّنت رسالته حروفا مصغّرة ومكبّرة. كم يبدو الأمر عجيبا! بالنظر إلى عادته، سطّر توقيعه بخطّ على شكل حرف سين S. ساعة بعد ذلك، لم يعد من أهل الدّنيا! هناك أيضاً شخص آخر، وحيد في غرفة صغيرة ذات حيطان خشبيّة مطليّة بالأزرق. وبعد؟ هذا كلّ شيء. تمّ اختياره من بين سكّان الأرض ليموت الآن.

شغلته هذه الفكرة وأخذ يقلّبها في دماغه إلى حدود الإنهاك. وانتبه، فجأة، إلى أنّ المساء قد حلّ، وأنّ رقّاص السّاعة يشير إلى الثامنة، ولم يفهم لماذا لم تعلن عن ذلك. الرقّاص لا يدقّ! بل مرّت دقائق على الثّامنة، والرقّاص يعمل. يسمعه جيّدا، ولكنه يرفض أن يدقّ! يا للرّجل المسكين، دماغه مات قبلاً.

دقّ رقّاص السّاعة، أخيرا، من دون أن يفطن إليه. رمى

صورة أمه المعلّقة على الجدار، لماذا على هذه اللوحة، التي لن تنفعه أبدا، أن تظلّ سليمة ما دام سوف يرحل؟ عيناه المتعبتان استقرّتا على أصل الزهور الموضوع على الطاولة؛ مدّ يده ودفعه ببطء ودِقّة ليسقط وينكسر. لماذا ينبغي أن يبقى بأكمله؟ ثمّ رمى حاملة سجائره العنبريّة من النافذة. فيم تنفعه بعد الآن؟ ما حاجة هذا الشيء إلى البقاء، مادام الرّجل سوف يموت في غضون أسبوع.

قام يوحنّا وشرع يجوب غرفته. الجار، الذي استيقظ بفعل الضّجيج، لم يعد شخيره يُسمع؛ أطلق زفرة، أشبه ما تكون بأنين يائس. عاد يوحنّا إلى طاولة عمله وجلس. توشوش أغصان الحور للرّيح أمام النافذة فتجعله يرتعش من البرد. هذه الأشجار العجوز المجرَّدة من أوراقها تجعله يفكِّر في كائنات وحشيَّة: بعض الأغصان المتشابكة تحتكّ بجدران المنزل، وهي تصدر أنينا شبيهاً بصرير منشار جهنَّمي.

ألقى نظرة على أوراقه وقرأها. ها قد صرفه خياله مرّة أخرى بعيداً عن النص... ليس لديه ما يفعل بالموت والسيّارة التي مرّت. كان إثر وصف حديقة مخضرّة على مقربة من بيت ولادته: حديقة القصر. في هذه الساعة، كانت الحديقة متوارية أسفل الثلج، ولكنّه يتخيّل أنّ ليس ثَمَّة وجود لشتاء ولا لثلج؛ وأنَّه، على العكس تماماً، تهِبّ رياح ربيعيّة ناعمة تنشر عبيرها المنعش. حلّ الغروب... الماء، في الأسفل، كان هادئاً، عميقاً، أشبه

twitter @baghdad_library

ما يكون بنهر رصاصيّ. البنفسج يعطِّر كلّ الشّجيرات المغطّاة بالأوراق والأزهار. كان الجوّ هادئاً لدرجة يمكن عندها سماع نقيق الضفادع المنبعث من جهة الشرم الأخرى... وحيدة كانت ڤكتوريا تتجوّل في الحديقة. أتمّت، الآن، العقد الثاني من عمرها، وصارت أطول من أعلى أشجار الورد! أدارت بصرها نحو الماء، الغابات والجبال نائمة، هناك، في حضن الخضرة، لا تزال كسوتها تبدو ناصعة البياض. سمعت ضجيج وقع خطوات واتّجهت نحو العريش الخفيّ. استندت إلى الجدار وراقبت الوضع عن كثب.

يكشف رجل عن نفسه في الطريق، ويكنس الأرض بطربوشه ليحيّيها. تردّ عليه بحركة بسيطة من رأسها. ينظر الرجل من حوله: لا أحد يراه؛ يقترب من الحائط. تراجعت إلى الخلف مذعورة، وأشارت إليه ليبتعد.

– ڤكتوريا، كنت صادقة، لم يكن عليّ أن أعقد آمالاً أبداً.. كان ذلك مستحيلا. أليس كذلك؟

– نعم، في هذه الحالة ماذا تريد مني؟

خطا خطوة أخرى؛ وحده الحائط أصبح يحول بينهما الآن...

– ماذا أريد؟ أن أبقى هنا دقيقة للمرّة الأخيرة؟ نعم، أريد أن أبقى بالقرب منك قدر المستطاع. ها، لست بعيدا عنك.

صمتت. سالت الدّقيقة.

– ليلة سعيدة، قال وهو يكشف عن نفسه ويكنس الأرض بطربوشه مرّة أخرى.

– ليلة سعيدة، أجابت.

وابتعد من دون أن يلتفت..

الموت... فيم يعنيه؟ عجن الورقة بكفّه ورماها في المدفأة، حيث التحقت بأوراق أخرى، هي أيضاً ثمار خياله الطّافح. الفتاة الشابَّة التي ترتدي البياض كانت لا تزال في الحديقة. لا حاجة لها به؛ حسناً. كان قد دنا من الحائط الذي تعيش خلفه. لأوّل مرّة في حياته استطاع أن يقترب منه إلى هذا الحدّ!

تنصرم الأسابيع والشهور، ويعود الرّبيع. كان الثلج اختفى، ومن بزوغ الشمس إلى طلوع القمر كان الفضاء يدوّي بفعل ضجيج ذوبان الجليد. أسراب السّنونو في طريق العودة، والغابة المجاورة للمدينة أضحت مسرحاً لحياة صاخبة حيث تجتمع كلّ أصناف الحيوانات والطيور تلهج بلغاتها السريّة. عبير منعش وعذب ينبعث من التّراب.

استغرق إبداع يوحنّا الشّتاء بأكمله. بدون انقطاع. ليلاً ونهاراً. أغصان الحور المجرّدة من اللّحاء تحدث صريرا وهي تحتكّ بجدار المنزل. مع قدوم الربيع، كانت العواصف ابتعدت وحملت معها صريف الأشجار.

فتح النافذة: الآن، قبيل منتصف اللّيل، يكون الشّارع رائعاً

twitter @baghdad_library

في هدوئه، والنجوم تلمع في سماء بدون سحب. وأعلن الغد عن نفسه صافياً ودافئاً. من بعيد، يلتحم ضجيج المدينة بالهمهمات السّماوية. صفير يعلن انطلاق القطار الأخير، جعله يفكّر في شدو الدّيك. كان هذا الصّفير بالنسبة إليه، طوال فصل الشّتاء، بمنزلة إشارة يستهلّ بعدها عمله.

أغلق النافذة وأخذ مكانه على الطاولة. أبعد قليلا المؤلَّفات التي كان مستغرقاً في قراءتها. أخرج أوراقه وحمل قلمه.

كان كتابه، في الواقع، اكتمل، باستثناء الفصل الأخير، الذي يودّع فيه القارئ، ويطمح أن يكون منساباً، أشبه ما يكون بباخرة تبتعد.

كانت تتمّة الرّواية في دماغه منذ زمن بعيد:

شخصٌ عظيمٌ وقويٌّ يتوقّف في نزل قرويّ. له شعر ولحية رماديان، وقد ترك الزمن آثارا على ملامحه. وعلى الرغم من ذلك فهو يبدو شابّا لا يزال. في الخارج يعمل الحوذيّ على الاعتناء بالخيول المتعبة، سعيدا بالطعام المسقيّ الذي منحه سيّده إيّاه. توجّه الرّجل نحو الاستقبال، وعندما قرأ صاحب النّزل الإسم الذي سجّله على لائحة المقيمين، حيّاه باحترام «من يعيش في القصر في هذه اللّحظة؟» قلق الرّجل «القبطان ثريّ جدّا والسّيدة تتصرّف بكلّ كرم نحو النّاس، كلّ الناس»، ردّد الزّبون بابتسامة واسعة «حتى نحوي»، ثمّ ذهب ليجلس على مائدة ويكتب بعض

السّطور على ورقة. قصيدة خطيرة ناعمة، بكلماتٍ دائمة المرارة. أعاد قراءة القصيدة ثمّ مزّقها، في الحال، إلى أن استحالت نثارًا، قبل أن يصعد إلى غرفته. لحظات بعد ذلك سمع طرقات على الباب. سيّدة ذات مشية مبجّلة تدخل وتنزع وشاحها: إنّها سيّدة القصر.السّيدة ڤكتوريا بعينها. يثب الرّجل واقفاً، متوتّراً بشكل واضح. ثمّ يستدرك: «تزورينني؟ صحيح، إنّك كريمة النّفس نحو كلّ النّاس» لم تردّ، وظلّت واقفة تنظر إليه ووجهها مشتعل غيظاً «ماذا تريدين منّي؟ سأل بنفس النبرة السّاخرة، جئت تذكّرينني بالماضي؟ في هذه الحال، اعلمي، سيّدتي العزيزة، أنّ هذه سوف تكون المرّة الأخيرة، لأنّني سوف أرحل إلى الأبد». أصاب سيدة القصر الشابّة الخرس، وإن كانت شفتاها ترتعشان «ألم يكفك سماعي مرّة واحدة لتعلمي مدى غروري؟ حسناً، سوف أكرّر ما قلته: كنت أرغب فيك، بيد أنني لم أكن أهلاً لذلك. هل ارتحت الآن؟» وبصوت يخون غضبه النّامي تابع كلامه:

«قلت لي: إنّك اخترت شخصاً آخر. لم أكن سوى فلاح مسكين، دبّ، همجيّ تائه في شبابه داخل أراضي القنص المخصّصة للملوك» وتهالك على كرسيّ «سامحيني، أتوسّل إليك! واذهبي لحال سبيلك». واستعادت سيّدة القصر هدوءها، «أنا أحبّك، قالت بصوت خفيض، افهمني جيّدا، أنت من أحبّ. إلى اللّقاء.» أخفت وجهها داخل كفيها وخرجت مسرعة.

وضع يوحنّا قلمه واستند إلى ظهر الكرسيّ. رؤية كلّ هذه

twitter @baghdad_library

الأوراق المسودّة، ثمرة تسعة أشهر من العمل، تشحنه بإحساس دافئ مريح. انتهى أخيرا من كتابة مؤلّفه. وبينما كان يتأمَّل عبر النافذة بزوغ النهار، واصلت الأفكار فيضها داخل رأسه..

ألفى نفسه الآن، بغموض كافٍ، على حافَّة وادٍ. في البعد، يعزف أرغن مهجور موسيقاه الشجيّة. دنا قليلا ليفحص الآلة الموسيقية فوجدها تنزف: خيط دم يسيل من خاصرتها من دون أن تتوقّف عن العزف. استأنف مشيه وعرَّج على ساحة سوق. هنا أيضاً، كلّ شيء كان قفراً: لا شجر، ولا ضجيج. ومع ذلك، نستطيع أن نميّز آثار بعض الخطى على الرّمل، وأن نستقبل، عبر الهواء، صدى متموِّجا لآخر العبارات المنطوقة، فالمكان مهجور من زمن قريب. واستولى عليه إحساس غريب: هذه الكلمات المريبة المنبعثة من أسفل السّاحة تقلقه وتخيفه، لأنها تبدو كأنها تقترب، مهدّدة. حاول بحزم أن يطردها، ولكنَّها لا تفتأ أن تعود. لم تكن كلمات... كانت عجزة! ثلّة من عجزة يرقصون. لماذا يرقصون؟ وبالضّبط، لماذا كانت رقصتهم على هذه الدرجة من اليأس؟! لكلّ هذا تأثير مروّع ، أشدّ ترويعاً من أن يتمّ التفكير في تجاهله. حينئذ، فقط، اكتشف بأنّهم عميان. حاول أن يتجاذب معهم أطراف الحديث، لكنّهم لم يكونوا ليسمعوه: كانوا أمواتاً...! اتجه، على الفور، نحو الشرق، على طريق الشمس. ولما اقترب من جبلٍ دوّى صوت يكلّمه: «هل أنت بالقرب من جبلٍ؟» «نعم» «هذا الجبل قدمي، وأنا موثوق في الثلث الخالي من الدنيا. تعال بسرعة لتحرّرني!» فلبّى النّداء.

بالقرب من الجسر استوقفه رجلُ مسخ: كان جامع أشباح يترقّب. دمه يتجمّد. بصق عليه وهدّده بقبضة من كفّه، دون جدوى. الآخر ينتظر، بثبات. «اذهب لحال سبيلك» صرخ صوت من خلفه. التفت ليلمح رأس رجل تتدحرج على الطّريق، ترشده على السبيل الذي ينبغي أن يسلكه. من حين لحين تنفلت من الرأس المتدحرج ضحكة خاطفة لاهثة. تبعها يوحنّا أياماً وليالي، وصل، من خلالها، أخيرا إلى ضفّةٍ نهر حيث غطس يستحمّ، بينما كانت الرأس تدفن ذاتها. وجد نفسه، فجأة، قبالة بوّابة ضخمة حيث تنبح سمكة ملجّمة مثل كلب. حينئذ، لمح ڤكتوريا، عارية، تنظر إليه ضاحكة، الشعر يتطاير بفعل الريح.تمدّ يديها إليه ثمّ تصرخ... وهنا، فقط، استيقظ من سباته.

نهض يوحنّا واتّجه نحو النافذة. كان النّهار أوشك على الطّلوع، وفي المرآة القريبة من النّافذة لاحظ أنّ صدغيه أصبحا بلون قرمزيّ. أطفأ المصباح وأعاد قراءة صفحات كتابه الأخيرة على هدي نور الفجر الرّمادي. ثمّ خلد إلى النّوم.

بعد منتصف النّهار، رتّب غرفته، سلّم المخطوط إلى الناشر، وغادر المدينة. إلى أين هذه المرّة؟ إلى خارج الوطن، ولكن، من دون أن يعرف أحد إلى أين؟.

كان إبداعه العظيم صدر، مملكة صغيرة مفعمة بالأحاسيس، بالصوت والسّراب. أخذ الناس في اقتنائه، في قراءته وتصفيفه. وتمرّ الشّهور.وفي الخريف المقبل ينشر يوحنّا مؤلّفا جديدا.

twitter @baghdad_library

ماذا يحدث له؟ أصبح اسمه فجأة على كلّ لسان: حلّق به الحظّ تحت جناحه الواقي. هذا الكتاب الجديد، الذي حرّره بعيدا عن أحداث محيطه، كان هادئا وقويّا مثل النّبيذ: «عزيزي القارئ، هذه حكاية ديدريك وإيسلين، كُتبت في الزّمن السّعيد للأحزان الصّغيرة سهلة النسيان، الرّواية الأمينة لمغامرة ديدريك، التي سيّجها الله بنعمة الحبّ».

كان يوحنّا في ديار الغربة، غير أنّ أحداً لم يكن يعلم أين هو بالضبط. وقد انصرم أكثر من عام قبل أن نعلم.

– يخيّل إليّ أنني سمعت دقّات على الباب، قال الطحّان العجوز ذات مساء.

أرهفت زوجته السّمع:

– لا، لم يكن شيئاً، ثمّ أضافت بعد برهة، إنها العاشرة،لم يبق كثير على منتصف اللّيل.

ومرّت الدّقائق.

وارتفع إيقاع الدقّات القويّة على الباب، كأنّ الزّائر اتّخذ قراره أخيرا. فتح الطحّان الباب ليفاجأ بفتاة القصر.

– لا تخافا، هذه أنا، قالت وعلى ثغرها بسمة خشية.

دخلت، وأعدّا لها مقعداً فرفضت الجلوس. لم تك ترتدي عير شالٍ يغطّي شعرها، ونعلين صغيرين منخفضين، على الرّغم من أنّ فصل الربيع كان لا يزال بعيدا، والطريق موحلا.

– جئت،فقط، لأخبركما بأن الملازم أوّل سوف يأتي في فصل الربيع... الملازم أوّل، خطيبي. ربّما يرغب بقنص الحجل هنا، ورأيت أن أخبركما، قبلاً، حتى لا يصيبكما الذّعر!

نظر الطحّان وزوجته إليها بدهشة. لم يسبق لأهل القصر أن حذّروهما من قبل حينما كان ضيوفهم يخرجون للصّيد في الغابة أو وسط الحقول. شكراها بتواضع. كانت جديرة بالتقدير فعلاً.

توجّهت ڤكتوريا نحو الباب:

– هذا كلّ شيء. فكّرتُ: يجدر بي أن أنبّهكما، لأنكما مسنّان.

– لطف منك أن تفكّري في هذا، أجاب الطحّان، وها آنستي قد بلّلت قدميها بهذين النّعلين الصّغيرين.

–كلاّ، كانت الطرقات يابسة، قالت باقتضاب، على كلّ حال، كان هذا طريقي. ليلة سعيدة.

– ليلة سعيدة.

أدارت مقبض الباب وخرجت.

عند مدخل الدّار استدارت وسألت:

– بالمناسبة، هل لديكما أنباء عن يوحنّا؟

–كلاّ، لا أخبار، نشكر اهتمامك.

twitter @baghdad_library

– سوف يعود قريبا، لا محالة، ظننتكما على علم بأخباره.

– كلاّ، لم يصلنا خبر منه منذ الرّبيع الفائت. إنه في ديار المهجر.

– في المهجر! نعم، لاشكّ في أنّه يحسن التصرّف.هو نفسه أعلن في مؤلّف له على أنه يعيش «زمن الأحزان الصغيرة السعيدة»، وهذا يعني أنه بخير.

– آه.. هذا ما لا يعلمه إلاّ الله! نحن في انتظاره، ولكنّه لا يعبأ بالكتابة إلينا، بل لا يكتب لأحد، ننتظره وحسب.

–لا شكّ في أنّه يعيش بشكل أفضل حيث هو، خاصة إذا كانت أحزانه صغيرة! قبل كلّ شيء، هذا أمر يخصّه. أردت أن أعرف، فقط، إن كان ينوي العودة في فصل الرّبيع. ليلة سعيدة.

– ليلة سعيدة.

رافقها الطحّان وزوجته إلى الخارج، وراقباها وهي تتوجّه نحو القصر، مرفوعة الهامة، تتقدّم بصعوبة على التراب الموحل.

بعد ذلك بأيام قلائل، وصلت رسالة من يوحنّا. سوف يعود إلى الوطن في غضون شهر تقريبا، ثمّة وجود لمؤلّف جديد قد اكتمل ولا بدّ أن يرى النّور. ابتسمت له الحياة طوال هذا الوقت، إذ إنّ كتاباً آخر سوف يكتمل قريبا... دماغه تعجّ بحشد من الأفكار.

خفّ الطحّان إلى القصر على التوّ. وفي طريقه عثر على منديل ڤكتوريا الذي فقدته، لاشكّ، يوم زارتهم.

كانت الآنسة في الطابق العلوي، واقترحت عليه خادمة أن تبلّغ الرسالة لسيّدتها. بماذا يتعلّق الأمر؟

لكن الطحّان رفض أن يعلن عن سبب زيارته.يفضّل أن ينتظر الآنسة.

بعد دقائق قليلة ظهرت ڤكتوريا:

– أخبروني أنَّك تريد التحدّث إليّ؟، قالت وهي تفتح باب الصالون.

دخل الطحّان وسلّمها المنديل..

– ثمّ إننا استلمنا رسالة من يوحنّا، أعلن.

ارتسم انفعال حيّ بشكل خاطف على محيّا ڤكتوريا

– شكرا جزيلا. نعم، هذا منديلي، أجابت.

– سوف يعود قريبا، تابع الطحّان بصوت منخفض.

وتجهّمت:

– تكلّم بصوت مرتفع، أيّها الطحّان، من الذي سيعود؟

– يوحنّا.

– يوحنّا، وبعد؟

– حسنا، يعني... حسبنا أنّه ينبغي أن نخبركم آنستي...

twitter @baghdad_library

تحدّثنا بهذا أنا وزوجتي، وكان لنا نفس الرأي. سألتنا قبل البارحة إن كان ينوي العودة هذا الربيع، والآن نحن نعلم.

– أنتما سعيدان، الآن، بدون أدنى شكّ؟ متى سيصل؟

– في غضون شهر.

– جيّد، ألا تريدان شيئا آخر؟

– كلاّ، فقط، حسبنا أنّه بما أنكم سألتمونا... كلاّ، هذا كلّ شيء.

كان الطحّان يخفض صوته مرّة أخرى.

رافقها. وفي الممرّ التقيا بوالدها، فبادرت إلى الإعلان بصوت مرتفع، وبنبرة لامبالاة:

– يخبر الطحّان بأنّ ابنه سوف يعود قريبا. هل تتذكّر يوحنّا؟

خرج الطحّان من القصر وهو يقسم على ألاّ يثق بزوجته، مرّة أخرى، إن ادّعت بأنّها مطّلعة على خبايا الأمور. وهو يمضي بهذه الخطوات الحازمة ليفهمها ذلك.

رغب، ذات مرّة، في قطع شجرة الآلنوس الرفيعة القريبة من السدّ ليصنع منها قصبة صيد؛ مرّت سنوات كثيرة بعد ذلك وأصبحت الشجرة أكثر سمكا من كفّه. تأملها باندهاش قبل أن يتابع جولته.

على امتداد النهر نبتت أدغال أعواد منيعة، غابة صغيرة حقيقية على بقعة مستباحة من عدد لا يحصى من الحيوانات التي تختفي آثار أرجلها تحت طبقات كثيفة من الحشائش. شقّ لنفسه طريقا وسط الشّجيرات، كما كان يفعل وهو صبيّ، عائما بذراعيه مائلا بينما قدمه تكاد لا تلمس الأرض. بعض الحشرات والحيوانات الصغيرة تفرّ مذعورة بمجرّد اقتراب هذا الرّجل الضّخم.

على مقربة من المقلع وجد شجرة خوخ، شقائق نعمان بيضاء وبنفسج... قطف بعضها. ذكّره عبيرها المألوف بالزمن الماضي الجميل! من بعيد، تبدو جبال القرية مصبوغة بالأزرق، وفي ضفّة الشّرم الأخرى استأنف الوقواق غناءه.

twitter @baghdad_library

جلس، وبعد قليل أخذ يدندن. تابع ترنيمته وهو يسمع وقع خطوات مقبلة من جهة الطريق.

بدأ الظلام يخيّم على المكان، كانت الشّمس غابت من فترة، غير أن الدفء بقيَ عالقا وكأنه متشبّث بتلابيب الهواء. صمت لا نهائيّ ملك الغابة، الجبال والشّرم. ثمّة وجود لسيّدة تصعد الجبل في اتجاه المقلع. إنها ڤكتوريا، وهي تحمل تحت إبطها سلّة.

نهض يوحنّا من مكانه، قدّم فروض التحيّة، وأخذ يبتعد.

– لم أقصد إزعاجك، قالت، جئت، فقط، لأقطف بعض الأزهار.

لم يردّ في الحال. ولم تتبادر إلى ذهنه حقيقة أنها تملك في حديقتها كلّ الأزهار المتخيّلة.

– حملت معي سلّة من أجل الزهور، تابعت، ولكن ربما لا أعثر عليها هنا. نروم تزيين مدخل الاستقبال والموائد، سوف نقيم حفلا ساهرا في القصر.

– يوجد هنا بعض شقائق النّعمان وبعض البنفسج، قال، في الأعلى، نجد دائما بعض حشائش الدّينار. ولكن ربما كان الوقت لا يزال مبكّرا على نموّها.

– تبدو أكثر شحوبا من المرة الأخيرة،لاحظت، مرّ أكثر من سنتين؟ كنتَ مسافرا على ما يبدو. قرأتُ كتبك.

لم يجب، وفكّر في أنِ يضع حدّاً لهذا الحديث قبل أن يذهب لحال سبيله بقوله «حسناً، عِمت مساء آنستي»، كان يقف في

مكان لا يفصله عن الحجر المقابل إلاّ خطوة واحدة، ومن هنا خطوة أخرى تفصله عنها، يمكنه، بعد ذلك، أن ينسحب بشكل طبيعيّ جدّاً. لكنها انتصبت أمامه، بجمالها الأخاذ، بكسوتها الصفراء وطربوشها الأحمر وجيدها العاري!

– هل أقطع عليكِ الطريق، تمتم وهو ينزل خطوة.

كان يقاوم بمشقّة ليخفي عنها انفعاله.

سنتيمترات قليلة تفصلهما الآن. ولكنَّها ظلَّت في نفس المكان لم تتزحزح. وحينما تبادلا نظرة طويلة تضرّج وجهها بالحمرة وغضَّت من بصرها، ثم تنقّلت بخفة وقد ارتسم على وجهها الارتباك، رغماً عن بسمتها الواسعة.

مرّ يوحنّا بالقرب من ڤكتوريا وتوقّف. كان مصدوماً بفعل كآبة تعابيره، وقال بشكل عفوي بينما كان قلبه يحلّق باتجاهها:

– أتصوّر أنَّك ذهبت إلى المدينة مراراً منذ آخر لقاء بيننا؟ مذ أن... خُذي، تذكّرت الآن أنَّ ثمّة وجود لورود في أعلى الجبل، على مقربة من ساريتكم.

استدارت نحوه ولمحت باندهاش ما يعتلي وجهه من شحوب.

– هل ترغب في حضور حفل الاستقبال؟، اقترحت، أقصد، هل تحبّ حضور هذه السهرة؟ سوف تكون سهرة كبيرة. يحضرها أناس آخرون من المدينة. ستقام في وقت قريب، وحينها، سوف أخبرك بكل التفاصيل. ما رأيك؟

twitter @baghdad_library

لم يردّ. لن يكون هذا الاستقبال على شرفه، فهو لا ينتمي إلى هذا العالم...

– لا يجوز لك أن ترفض. لن تملّ، فكَّرتُ في هذا كثيراً، وأحضرت لك مفاجأة مذهلة بالمناسبة.

– لن تتمكّني من مفاجأتي، مرّة أخرى، همس بعد صمت.

عضّت على شفتيها، واعتلت البسمة اليائسة وجهها من جديد:

– ماذا تريد منّي؟، سألت بصوت نقيّ.

– لاشيء، آنستي. كنت جالساً هنا على حجر، ويمكن أن أذهب لحال سبيلي...

– إسمع، طوال اليوم وأنا أدور حول المنزل قبل أن آتي إلى هنا.كان في مقدوري أن أصعد على طول النهر؛ أن أمضي في طريق آخر، لاشيء حتّم عليّ أن آتي من هنا..

– آنستي العزيزة، المكان كلّه ملكك.

– أسأت إليك مرّة، يوحنّا، أتوق إلى أن أصحّح خطأي. عندي مفاجأة لك حقّا، أظنُّ أنها... أظنّ... أتمنّى أن تعجبك. لا يمكنني أن أقول لك أكثر من هذا. ولكنني ألتمس منك أن تقبل دعوتي.

– إذا كان هذا مبعث بهجتك، سوف أحضر.

– هل تقبل؟

– نعم، شكراً عل لطفك.

بمجرّد ما وصل إلى الغابة التفت خلفه. كانت جالسة، بالقرب منها سلّتها. لن يعود إلى البيت. سوف يهيم في الطرقات قليلا.ألف فكرة تعصف بدماغه. مفاجأة؟! هذا ما قالته منذ لحظة، وارتعش صوتها. أخذ قلبه يدقّ بعنف بفعل البهجة الدافئة المتوتّرة التي اشتعلت بداخله. شعر وكأنه يسير في الهواء فوق الطريق.هل كان صدفة، حقّا، أن ترتدي اليوم أيضاً كسوتها الصفراء؟ لمح الإصبع الذي كان يحمل خاتما، في يوم من الأيام؛ لا أثر له الآن.

وسالت ساعة من الزمن. ثمل فيها بعبير الغابة والحقول الذي يتسلّل إلى رئتيه وقلبه.

جلس. تمدّد. جمع يديه خلف قفاه.بعد وقت طويل سمع صراخ الوقواق المنبعث من ضفّة الشرم الأخرى؛ نشيد عصفور مفتون يملأ المحيط من حوله.

ليس إلاّ الفرح مرّة أخرى! لمّاذا التحقت به في المقلع، بدت بكسوتها الصفراء وقبعتها الحمراء اللاّمعة أشبه ما تكون بفراشة تتنقّل من حجر إلى آخر قبل أن تحطّ، أخيرا، أمامه. «لا أرغب في إزعاجك» أعلنت مبتسمة، وبسمتها أنارت محيّاها. كأنها تبذر النّجوم من حولها!في أسفل جيدها برقت أوردة زرقاء صغيرة، وبعض نمش أصهب أخذ يعتلي سحنتها. لقد بلغت العشرين من العمر.

مفاجأة؟ ماذا كانت نيتها؟ هل ترغب بأن تطلعه على كتبه

twitter @baghdad_library

حتى يشعر بالبهجة، وتبرهن له على أنًّها اشترتها وقصّت بعض صفحاتها؟ «تقبّل، من فضلك، هذا الاهتمام الصغير، هذه التعزية الظريفة، لا ترفض هبتي المتواضعة».

ووقف في غاية الانفعال، وظلّ واقفا. ورجعت ڤكتوريا وهي تحمل سلّة فارغة.

– ألم تجد زهورا؟، قال سهوا.

– بلى، واكني عدلت عن الفكرة. الحقيقة أنني لم أبحث عنها. بقيتُ هناك أفكّر.

– أنا أيضاً فكّرت في الأمر. ورغبت في أن أحرّرك من أيّ إحساس بالمسؤوليّة تجاه ما حدث بيننا، ليس ثمّة ما يدفعك لأن تعتقدِي بأنَّكِ أسأتِ إليّ.

– آه..، قالت، وقد أُخذت على بغتة.

تأمّلته لحظة، حالمة.

– ظننت أنّه قد يأتي يوم... لا أريدك أن تآخذني بما جرى..

– لن أفعل.

أطرقت متأمّلة برهة أخرى، ثمّ رفعت رأسها.

– جيّد. كان عليّ أن أرتاب. أتمنّى ألاّ أكون مصدر ضغط بالنسبة إليك. لنترك الحديث عن هذا.

– هذا أفضل. مشاعري لم تعد تبالي بك.

– إلى اللقاء، إذن، قالت.

– إلى اللقاء.

أخذ كلّ منهما طريقا معاكسا. نهضت وقامت بنصف دورة، ثمّ أخذت تبتعد إلى هناك. مدّ كفّيه نحوها، وهمهم في نفسه بكلمات رقيقة «لا ألومك، كلاّ؛ أحبّك لا أزال، أحبّك...»

– ڤكتوريا! صاح.

ارتعشت لسماعه والتفتت. ولكنها عادت لتواصل سيرها من جديد.

مرّت أيام.قضاها يوحنّا مضطربا؛ لم يعد يكتب، لم يعد يغمض له جفن، وأخذ ينفق معظم وقته متجوّلا في الغابة. ذات يوم، تسلّق الجبل المكسوّ بأشجار الصنوبر حيث توجد سارية القصر. كان العلَم يرفرف، علم آخر يرفرف على البرج الصغير.

سيطر عليه شعور غريب. كان أصحاب القصر ينتظرون ضيوف الحفل. بعد منتصف النهار كان الجوّ هادئا وحارّا، والنهر يعبر المنظر الطبيعي مثل شريان. ثمّة بخار يسيل نحو المرفأ، مخلّفا وراءه زوبعة نثار أبيض. في نفس اللحظة، خرجت من ساحة القصر أربع سيارات، واتجهت نحو محطة السكة الحديدية.

الباخرة مشدودة إلى رصيف المرفأ، الرجال والنساء ينزلون ويأخذون أمكنتهم داخل العربات.

أصوات طلقات نارية تنبعث من القصر؛ رجلان يطلقان

twitter @baghdad_library

عيارات نارية من بندقيتيهما في أعلى البرج، إلى أن يكملا إحدى وعشرين طلقة.. السّيارات تتقاطر على البناء.

حسنا، يقام حفل في القصر، ويتمّ استقبال الضّيوف بالطلقات النارية والإعلام. داخل السيارات بعض العساكر، وربّما كان أوطو، الملازم أول، من بينهم.

نزل يوحنّا من الجبل، واتجه نحو البيت. استوقفه رسول من عند ڤكتوريا، وسلّمه رسالة وانتظر الجواب.

قرأ يوحنّا الرسالة وقلبه يخفق بعنف. ڤكتوريا تدعوه إلى الحفل، على الرغم من كل شيء. كتبت إليه بعبارات مهذّبة تلتمس منه قبول الدعوة «أجب»، توسًّلت.

استولت عليه فرحة وحشيَّة، وصعد الدّم إلى رأسه. وأجاب بأنه سوف يحضر بكلّ فرح.

– خذ..، قال للرسول وهو ينفحه إكرامية مجزية، قبل أن يخفّ إلى البيت ليرتدي ملابسه.

لأوّل مرّة في حياته يلج القصر، ويصعد الأدراج المؤدِّية إلى الطابق الأول. يتقدّم بينما تلتقط أذناه صدى أحاديث منبعثة من الداخل. نبض قلبه بقوّة عندما طرق الباب ودخل إلى الصالة الكبرى.

أقبلت المضيفة نحوه، سيّدة لا تزال في مقتبل العمر، سلّمت عليه بودّ. كانت سعيدة للقائه، وتذكّرت جيّدا ذلك الزمن الذي لم يكن فيه أطول مما هو اليوم، ها قد أصبح رجلا. بدا عليها أنّها ترغب في إضافة شيء آخر، ولكنّها لم تفعل غير أن أبقت كفّها في كفّه طويلا وهي تتفرّسه.

التحق بها زوجها، ومدّ يده بدوره إلى يوحنّا. وكما سبق لزوجته أن قالت، أعلن: ها قد أصبح رجلاً، رجلاً كبيراً، وله فضلاً عن ذلك إسم أدبيّ معروف «أنا سعيد جدّا...»

قاما بتقديمه لهاته النّسوة، ولهؤلاء الرّجال. لأمين الملك الذي يشجّر كلّ الديكورات، ولمالك ضيع القرى المجاورة، لأوطو، الملازم أوّل.

twitter @baghdad_library

لم ير ڤكتوريا.

ظهرت أخيرا، شاحبة وليست على ما يرام. تمسك بكفّ فتاة. تحرّكتا على طول الصّالة تلقيان التحيّة على الحاضرين، وتتبادلان معهم بضع كلمات. توقّفتا أمام يوحنّا. ابتسمت ڤكتوريا له، وقالت:

– أنظر، ها هي كاميلا؛ أليست هذه مفاجأة؟ تعرفان بعضكما على ما أظنّ؟

وأخذت تنظر إليهما برهة من الزّمن قبل أن تغادر الصّالة.

تسمّر يوحنّا في مكانه من فرط الدهشة. هذه، إذن، مفاجأتها! وجدت ڤكتوريا له من يعوّضها. «ولكن، أنظر، خلقتما لبعضكما البعض. هذا الربيع، والشّمس تلمع: شرِّع النّوافذ إن كان يروق لك ذلك، الحديقة معطّرة، والزّرازير تلهو داخل أشجار القضبان. لماذا لا تتكلّم؟ هيّا، اضحك قليلا إذن!»

قطعت كاميلا حبل أفكاره.

– نعم، نعرف بعضنا البعض، قالت بشكل طبيعي، هنا أنقذْتَ حياتي ذات مرّة.

كانت شابة، شقراء، مرحة، ترفل في كسوة ورديّة؛ في السابعة عشرة من عمرها. ضغط يوحنّا على أضراسه وأجبر نفسه على مداعبتها. شيئاً فشيئاً أصابته عدوى مزاجها الطيّب،

فثرثرا وقتاً طويلا. توقّف قلب يوحنّا عن الخفقان بشدّة. وكانت كاميلا احتفظت، منذ طفولتها، بعادة إمالة رأسها وهي تصغي. ولم يكن مفاجأة أن يعجب بها كما أعجبت به بالضبط.

عادت ڤكتوريا تتأبطّ ذراع الملازم أول وتجذبه.

– أنت تعرف أوطو، خطيبي؟، سألت يوحنّا، ألا تذكره؟.

تذكّر الشباب بعضهم البعض حقّا، وأخذوا يتجاذبون الكلمات المبتذلة والمراوغات الماكرة، ثمّ انسحب العسكريّ. ليجد كلّ من يوحناّ وڤكتوريا نفسيهما وحيدين.

– هل هذه هي مفاجأتي؟، سأل.

– نعم، أجابت بنبرة انزعاج، وبقليل من الصبر أضافت، فعلت كلّ ما كان بوسعي، لم أدر كيف أتصرّف معك. اشكرني ولا تكن أحمق. رأيت جيّداً كم أسعدك هذا الأمر!

– في هذه الحالة أشكرك. نعم، أسعدتني رؤيتك من جديد كاميلا.

إحساس فظيع باليأس أخذ ينهش أعماقه، وأضحى وجهه شاحباً. إن كان سبق وآلمته، ها قد انمحى كلّ شيء الآن، وتمّ الإصلاح. إنه يعترف لها بالجميل.

– أرى أنك تضعين خاتمك هذا المساء، أضاف بصوت نقيّ، لا تخلعيه أبدا، أرجوك.

twitter @baghdad_library

– كلاّ، لا أفكّر في خلعه، صدّقت قوله بعد صمت.

تبادلا النظرات. ارتعشت شفتاه عندما حوّل بصره في اتجاه الملازم أوّل، وأعلن بنبرة فظّة:

– ذوقك رائع، ڤكتوريا، هذا رجل جميل.. حشو المنكبين يوشكان أن يمنحاه كتفين!

– ليس جميلا، ولكنّه حسن التربية. هذا في غاية الأهمية أيضا، فنّدت كلامه بهدوء.

– مقارنة بي طبعا! أشكرك، قال ضاحكا قبل أن يضيف بكلّ وقاحة، ثمّ إنه رجل ثريّ، هذا ربمّا يهمّ بشكل أكبر.

ابتعدت عنه، على الفور، بدون أن تردّ.

أخذ يتسكّع من جدار إلى آخر أشبه ما يكون بروح معذّبة تتوق إلى الخلاص. سألته كاميلا عن شيء ما، لكنّه لم يسمعها. كان عليها أن تعيد سؤالها مرة أخرى، بل تشدّه من ذراعه أيضاً، ولكن بدون أيّة نتيجة.

– ها هو يفكّر، علّقَت بمرح، يفكّر، يفكّر!

سمعتها ڤكتوريا

–يريد أن يبقى وحيداً، طردني أنا أيضاً.

ثمّ اقتربت منه وقالت بقوّة:

– ما من شكّ في أنَّك تفكِّر بالاعتذار. لا تهتمّ، أنا أيضاً ملزمة بالاعتذار لك، لقد استدعيتك في وقت متأخِّر جدّاً. كان خطأ طائشا من جهتي. نسيتك إلى آخر لحظة، كنت نسيتك تماماً. أتمنى لو تغفر سهوي، أمور كثيرة كانت تشغلني..

رماها بنظرة ثابتة، غبيّة. كاميلا تراقبهما بنظراتها، الواحد تلو الآخر. بدا أنها لا تفهم ما يحدث بالضبط. وتحاول ڤكتوريا أن تتمالك نفسها أمامهما، فتستعير ارتياحا بواسطة وجه بارد. لقد انتقمت لنفسها:

– ها هم خدّامنا الفرسان! خاطبت كاميلا، لا ينبغي أن يعوّل على اهتمام من جانبهم. هناك، يتحدَّث خطيبي عن قنص الأيّل، وهنا يبدو الشّاعر غارقا في تأمّلاته... قلْ شيئا أيّها الشّاعر!

انتفض، وبرزت أوردة صدغيه نافرة:

– موافق، ترغبين في أن أقول شيئا؟ حسناً.

– أوه! كلاّ، لا تتعب نفسك.

وتظاهرت بالرغبة في الانصراف.

– لكي نتّجه مباشرة نحو الهدف، استهلّ الكلام ببطء وبصوت مرتعش، ولكن ببسمة على الشفتين،

لكي نختصر الطريق: هل أحببت، أخيراً، ڤكتوريا؟

twitter @baghdad_library

خيّم الصمت عليهم للحظات؛ كان في مقدور الثلاثة أن يصغوا إلى خفقان أفئدتهم.

– من الطبيعي أن تكون ڤكتوريا مغرمة بخطيبها، أجابت كاميلا بصوت حزين، هذه خطبتها، ألم تك تعلم؟

وشُرّعت أبواب صالة الطعام في وجه المدعوّين.

وجد يوحنّا مكانه معدًا، وظلّ واقفا خلف المقعد. كان مرهقا بفعل الجلبة، وأخذت المائدة تتراقص أمام ناظريه.

– خذ مكانك، من فضلك، قالت له المضيفة، ليجلس الجميع، من فضلكم.

– هل تسمح؟، همست ڤكتوريا من خلفه فجأة.

وتقدّم خطوة جانبا.

التقطت ڤكتوريا بطاقته ووضعتها على بعد سبعة مقاعد، هناك، بالقرب من عجوز، مربّي القصر القديم وصاحب سمعة الإدمان على الكحول المحزنة، ثمّ همّت بالجلوس.

راقبها يوحنّا من دون أن يبدي حراكا. وأخذت سيّدة القصر المضطربة تفتعل الانشغال في الجهة الأخرى من المائدة، واتّقت نظراته قدر المستطاع.

توجّه يوحنّا إلى مكانه الجديد أكثر ارتباكا من ذي قبل،

أما المكان الذي كان مخصّصا له منذ البداية فقد شغله أحد أصدقاء ديتلف، شاب يرتدي قميصا مزيّنا بأزرار ماسية. عن شماله جلست ڤكتوريا، وعن يمينه كاميلا.

وقُدّم العشاء.

تذكّر المربّي العجوز يوحنّا جيّدا وشرعا يتحدّثان. حكى كيف أنّه نظم أشعارا في حياته أيضاً، وأنه لا يزال يحتفظ ببعض مخطوطاتها، سوف يمنحه شرف قراءتها بالمناسبة. استدعوه لهذا الحفل حتى يشارك في بهجة خطوبة ڤكتوريا. اختصّه مضيفوه بهذه المفاجأة اعترافا بصداقتهم القديمة جدًا.

– لم أقرأ لك شيئا، أضاف العجوز، عندما أرغب في القراءة، أقرأ إبداعي الشخصي؛ عندي خزانة غاصّة بالأشعار والقصص سوف تنشر بعد موتي، أريد أن يعرف الناس مَنْ كنت حقّا. ماذا تريد؟ نحن العجزة نتردّد كثيرا في إيداع إبداعاتنا لدى النّاشرين. في صحّتك!

تتعاقب أطباق الطّعام على المائدة.ينقر سيّد القصر بشدّة على كأسه ليثير انتباه الحضور ويقف. بدا وجهه الشّاحب الأنيق موسوما بالتأثّر والسّعادة. وأطرق يوحنّا. كان كأسه فارغا ولم يهتمّ أحد بملئه. تكفّل هو بذلك قبل أن يعود إلى إطراقه من جديد.

وأزفت اللّحظة الفظيعة.

استُقبل الخطاب الطويل بانفجار ينبوع الفرحة وسط

twitter @baghdad_library

الجميع: كانت الخطوبة رسميّة. وانهالت التهاني على فتاة القصر وابن الأمين من كل جانب..

أفرغ يوحنّا الكأس في جوفه.

لحظات بعد ذلك، خفّت حدّة انفعاله واسترجع هدوءه. انتبه إلى أن الأمين نفسه شرع في إلقاء كلمة بالمناسبة وسط ضجيج الصّراخ والتّصفيق، وفرقعة الكؤوس.

ألقى نظرة خاطفة على ڤكتوريا التي لم ترفع رأسها، بدا وجهها شاحبا ومنزعجا بشكل واضح. حيّته كاميلا، في المقابل، ابتسامة عذبة لم يجد بدّا من ردّها.

وبالقرب منه، تابع المربّي العجوز إسهابه:

– رائع، حقّا، لقاء شابّين متحابّين. لم يكن هذا حالي.كنت طالباً يافعا أمامه مستقبل لامع، وغير قليل من الذكاء! كان أبي يحمل لقبا قديما، محترما جدّا. وكان يملك بيتا كبيرا، ثروة، وكثيراً، كثيراً من البواخر. لن أكذب عليك إن أعلنت أن مستقبلي كان يبشر بكلّ خير. وكانت هي أيضاً شابّة من أسرة عريقة وطيّبة جدّا. زرتهم يوما، وأفصحت لها عن حبّي. لكنّها رفضت. «لا» هذا ما قالته. هل تعرف ما معنى ذلك؟ كلاّ، لا تريد أن تعرف! فعلت كلّ ما كان في وسعي؛ أن أعمل وأتحمّل الوضع مثل رجل. ثمّ حلّت النّكبة بأبي: غرق السّفن، وكثرة الديون، باختصار، الإفلاس. ماذا كان في مقدوري فعله؟ مرّة أخرى، تحمّلت مسؤوليتي مثل

رجل. وها هي الفتاة تعلن عن نفسها من جديد. إنها تأتي للقائي بالمدينة. لعلّك تتساءل: ماذا تريد مني؟ كنت فقيراً، لم أكن أملك غير وظيفة معلّم بسيط أعيش من أجرها، كلّ مشاريعي الجميلة اندثرت، وقصائدي توارت خلف دفَّتَي خزانة. ولكن، ها هي تعود إليّ مرّة أخرى؛ تعترف بأنها ترغب بْي كثيرا!

تأمّل المربي يوحنّا قبل أن يسأل:

– أتفهم هذه الأمور؟

– إذن، أنت من لا يرغب بها الآن؟

– هل أستطيع؟ قل لي، وظيفة معلّم! لم أكن أملك فلساً واحداً، حتى تبغ غليوني لا أظفر به إلاّ يوم الأحد! ماذا تريد؟ لم أكن لأرضى لها بهذه الحياة؟ ولكن، دعني أوجّه إليك السؤال: هل تفهمها؟

– وما آل إليه مصيرها؟

– آه، أنت تتهرّب من الجواب.. تزوَّجت بقبطان بعد سنة من فراقنا، قبطان مدفعيّة. في صحّتك!

– يقال إنّ بعض النساء يثرن الشّفقة، فعلا. إذا نجح الرّجل يكرهنه ويأخذهنّ الكِبر، أمّا إذا لم ينجح وانحنى ظهره، ينظرن إليه من علٍ، ويبادرن إلى حمايته.

– ولكن، لماذا لم ترغب بي أيّام السّعادة؟ كان لي مستقبل باهر!

twitter @baghdad_library

–ربّما رغبت في أن تراك تعضّ التراب. الله وحده يعلم...

– ولكنّني لم أطو ظهري.. أبدا.. حافظت دائما على كرامتي، وطردتها. ما رأيك؟

أحجم يوحنّا عن الردّ.

– بعد كل شيء، ربما تكون على حقّ. والله أنت على حقّ!، ثمّ هتف فجأة وهو يعبّ من كأسه، انتهى بها المطاف، أخيرا، مع قبطان عجوز: تعالجه، تقطّع له الطعام في صينيته، وتحمل سرواله. قبطان مدفعية!

عدّل يوحنّا من وضع رأسه. كانت ڤكتوريا تنظر إليه، وكأسها مرفوعة مضطربة بشكل عنيف. قلّدها بكفّ مرتعشة.

حينئذ وجّهت التحيّة إلى معلّمها القديم الجالس بالقرب منه، فأخذ يضحك. وابتسم يوحنّا بمرارة، ذليلاً يائسًا، بينما هامت عيناه في فراغ. كلّ الناس لاحظوا وضعه الحقير، أما جاره على المائدة فقد تأثّر بالاهتمام اللّطيف الذي حبته به تلميذته القديمة، حتى فاضت عيناه بالدّموع، وطفق يفرغ كأسه في جوفه.

– ها أنذا، استأنف يخاطب يوحنّا، عجوز وحيد مجهول يمارس الشّقاوة.هذا قدري. لا أحد يعرف ما بي؛ ومع ذلك لا أحد سمعني أئنّ أبدا. قل لي، هل تعرف اليمامة؟ إنها هي، هذه العاطفة المشبوبة العظيمة التي تعكّر الماء الصّافي قبل أن تشربه. أليس كذلك؟

– أجهل هذا.

– ماذا؟ في كلّ الأحوال، أنا متأكّد من أنها هي. وأنا، أتصرّف بالمثل. لم أظفر بتلك التي كنت أحبّها، ولكنني لا أفتقر إلى البهجة إلى هذا الحدّ. فقط، أقلقهم بشكل قبلي. هكذا دائما، لا يمكن للخيبة أن تهزمني. انظر إلى ڤكتوريا، هناك، شاطرتني نخب الفرح قبل قليل. كنت معلّمها، وسوف تتزوّج الآن. أنا سعيد لأجلها؛ أشعر بسعادة شخصية، كما لو تعلق الأمر بابنتي.ربما أكون يوما ما معلّم أطفالها؟ نعم، في الغيب، تحتفظ الحياة لنا دائما بمفاجآت رائعة. ولكن، ما قلتَه، بخصوص وضع النساء المثير للشّفقة، كلّما فكرت به، اقتنعت بأنه حقيقة لا غبار عليها. والله إنك لعلى حقّ... اعذرني لحظة.

نهض العجوز، حمل كأسه وتوجّه نحو ڤكتوريا بخطوات غير واثقة.

من بين النّخب العديدة، كان هناك واحد خاص بالملازم أوّل، وآخر بأكبر إقطاعيي القرية المجاورة في شرف سيّدة القصر.

ثمّ جاء دور السيد صاحب القميص المزيّن بالماس، الذي وقف ونادى باسم يوحنّا، مؤكّدا أنه تمّ الترخيص له بتحيّة الشاعر الشاب باسم كلّ الشباب الحاضر هنا. أفصح خطابه بعبارات قويّة مهذّبة عن مقدار الإعجاب والتّقدير اللذين يكنّهما له شباب جيله.

twitter @baghdad_library

لم يصدّق يوحنّا ما يسمع، وهمس في أذن جاره:

– إنه يتحدّث عنّي.

– بلى، اللئيم سبقني. رغبت في أن أقوم بذلك شخصيّا؛ التمست ڤكتوريا مني، بعد ظهر اليوم، أن أفعل هذا.

– من التمس منك ذلك؟

وثبّت المربّي فيه نظراته:

– لا أحد.

توجّهت كلّ الأنظار نحوه. حيّاهم بإيماءة من رأسه، ووضعت زوجة الأمين عويناتها الزجاجية لتراه. عند نهاية الخطاب شرب كلّ الحاضرين نخب صحّته.

– عليك أن تردّ وتشكر، همس المربّي في أذنه، هذا يعني أن هذه المهمة كان يفترض أن تسند إلى شخص أكثر نضجا، وأنا لست متّفقاً، تماماً، مع ما قاله هذا الصبيّ، على الإطلاق.

نظر يوحنّا، من جديد، جهة ڤكتوريا.

لم اختارت هذا الشاب ليلقي خطبته؟ ولم التمست من المربّيَ، قبلاً، القيام بذلك؟

وظلّت، الآن، مُطرقة وتعبير محيّاها غير مفهوم. فجأة، لمع في عيني يوحنّا بريق انفعال حيّ، لا مانع لديه من الارتماء تحت

قدميها شاكرا إياها من كلّ قلبه. عاهد نفسه على القيام بذلك مستقبلا، ربما بعد العشاء.

كانت كاميلا تتحدّث إلى كلّ الناس، وابتسامتها تنير محيّاها. كانت سعيدة؛ لم تحمل لها السنة السابعة عشر من عمرها غير السعادة. تبتسم في وجه يوحنّا في كل مناسبة، وتشير إليه بالوقوف.

ونفّذ إلقاء كلمة قصيرة بصوت عميق مؤثّر:

يتشرّف بالمشاركة في هذا الحفل العائلي، الذي ليس فردا من أفراده، وهو يحرص على أن يشكر تلك التي انبجست في ذهنها هذه الفكرة لأول مرة، ويرغب، في الوقت نفسه، أن يشكر الشاب الذي ألقى خطبته بكلّ لطف، في حين أن سبب حضوره الوحيد، هذا المساء، يكمن في أنه إبن الجيران...

– برافو!، هتفت ڤكتوريا بنظرة مشتعلة.

التفت نحوها كلّ الضيوف: كانت وجنتاها قرمزيتين، وأنفاسها متلاحقة. سكت يوحنّا، وخيّم على المائدة سكون مزعج:

– ڤكتوريا!، صاح والدها مندهشاً.

– واصِل كلامك!، استأنفت، ربّما تكون هذه آخر مرّة تدخل إلى هنا، ولكن واصل!

استرجعت نظراتها سماتها الطبيعية شيئاً فشيئاً، وشرعت

twitter @baghdad_library

تهزّ رأسها، حائرةً، ببسمة غريبة على الشفتين، ثمّ خاطبت والدها:

– رغبت في أن أبالغ شيئاً ما، هو أيضاً يبالغ. ولكنّي لا أنوي الإزعاج.

وجد يوحنّا مخرجاً بسماعه هذا التبرير؛ قلبه يخفق بقوّة يكاد يسمعه الجميع. لمح أم ڤكتوريا تنظر إلى ابنتها، بعد تفهّم تامّ، بعينين مبلّلتين بالدّموع.

نعم، بالغ شيئاً ما، اعترَف، الآنسة ڤكتوريا محقّة في تذكيره. أرادت أن تقول أنه لم يكن إبن الجار، وحسب، وإنّما صديق ألعاب الطفولة، أيضاً. الحقيقة أنّه حضر هذا المساء بهذه الصّفة. في القصر، يشعر كأنّه في بيته، وقد مثّلت الغابات المجاورة، يوماً ما، كلّ عالمه؛ عالم الأسرار والمغامرات. خلال هذه الأعوام، بالذّات، استقبل زيارات كلّ من ديتلف وڤكتوريا اللّذين كانا يستدعيانه للمشاركة في ألعابهما، وكانت هذه الأوقات، بالنسبة إليه، أجمل ذكرياته وأغلاها. عندما يتذكّر هذه اللحظات السعيدة، يدرك أنَّه كانت لها أهمِّية حاسمة في حياته، أهمِّيّة لا أحد يستطيع تقديرها. وإذا صحّ ما قيل حول أنَّ كتاباته تبدو «ذات إشعاع» أحياناً، فإنَّ هذه الفترة من حياته، بالضبط، هي التي ولّدت هذا الإشعاع؛ كان الأمر انعكاساً للسعادة التي زوَّدني بها صديقاً لعب الطفولة. فمن الإنصاف، إذن، الإِعتراف بأنّهما أسهما بجزء كبير في سطوع موهبته.

فضلاً عن تمنّياته بالسعادة للخطيبين، يرغب يوحنّا في إضافة كلمة شكر خاصة لطفلَيْ القصر عن أيّام الطفولة الجميلة، قبل أن يفرِّقهم الزّمن والأحداث، وعلى فترة الصيف المرحة هذه، ولكن القصيرة جدّا...

لم يكن راضياً، إطلاقاً، عن خطابه، أو بالأصحّ خطاطة خطابه. ولكنّه استطاع، مع ذلك، أن ينقذ نفسه من حرج الوضع الذي وجد نفسه فيه. استهلّ الحضور الأكل والشرب، واشتعلت الأحاديث.

– أجهل أنّني ألّفت كتباً، أتعلمين؟، همس ديتلف لأمّه بجفوة. لم تعلّق على كلامه وشربت نخب أبنائها:

– أشكريه، أرجوك. ينبغي أن تفهموه، كان وحيداً في طفولته.. ماذا تفعلين ڤكتوريا؟

– أرغب في أن أرسل إليه غصن اللّيلك هذا، بواسطة الخادمة، أشكره. هل أستطيع ذلك؟

– كلاّ، حسم الملازم أوّل الأمر.

بعد وجبة العشاء تفرّق المدعوون في الصالونات، على الشرفة الكبيرة، وفي الحديقة. بحث يوحنّا عن ملجأ في الطابق الأرضيّ فألفى نفسه في الحديقة الشتويَّة. هناك، وجد مالك الأراضي وشخصاً آخر يدخّنان، ويثرثران بصوت خفيض عن ثروة سيِّد القصر المبذّرة، وعن سوء تدبير ملكيَّته: الأدغال

twitter @baghdad_library

تكتسح كلّ مكان، والسياجات تتساقط، والغابة أضحت عارية من الأشجار بشكل فاضح؛ وحسب ما يروَّج من أخبار، سوف يصعب عليه تسوية بوليصة التأمين الضخمة على منازله وأثاثه.

– كم مقدار التأمين الملزم بأدائه؟

وذكر مالك الأراضي رقماً مخيفاً.

الأخطر من ذلك، أنّ القصر لم يسبق أن نهج سياسة اقتصادية متوازنة، وكانت النفقات مبالغاً فيها، غالباً. كم تمّ إنفاقه، مثلا، في مناسبة كهذه؟ يقولون:حتّى صندوق الحليّ الخاص بسيّدة القصر أخذ يفرغ شيئاً فشيئاً؛ الواقع، أنّهم يأملون تسوية أزمتهم المالية اعتمادا على ثروة صهرهم.

– وهل يمكنه إسعافهم في هذا الأمر؟

– طبعا، إرثه لا يقدّر!

نهض يوحنّا ونزل إلى الحديقة.عبير لَيْلكٍ ناعم يغشى المكان، وآخر لنرجس يمتزج بعبير ياسمين وزنابق. استقرّ بركن صغير بالقرب من الجدار، ثمّ جلس على حجر، معزولا عن بقيّة العالم بفعل خرير المياه. كان منهكا من فرط الانفعالات. بعد لحظة، فكّر في الذهاب لحال سبيله، ولكنّه عجز عن الحركة، واستكان في مكانه، مُضطرب الأفكار، مثل مخبول.

سمع أصواتاً تتحدّث في ممرّ الحديقة: شخص ما يقترب.

تعرّف على صوت ڤكتوريا. كتم أنفاسه وانتظر. استطاع، بعد ذلك، أن يميّز بزّة الملازم أوّل، ذات الأشرطة اللاّمعة. الخطيبان يتجوّلان.

–...لا أرى في الأمر ما يبدو طبيعيًا، قال الملازم أوّل، تصغين إليه وهو يلقي كلمته، تجدين لذّة في سماعه، ثمّ تتوهّجين، ماذا يعني كلّ هذا؟

توقّفت عن السّير. ثبتت قبالته وهامتها مرفوعة:

–هل ترغب في معرفة السبب؟

– نعم.

صمتت.

– الأمر سيّان عندي، إذا كان غير ذا أهمِّيَّة. في هذه الحالة لستِ ملزمة بقول شيء.

وتراجعت.

– نعم، هذا أمر لا أهمِّيَّة له.

تقدّما بضع خطوات. هزّ الملازم أوَّل كتفيه وقال بصوت قويّ:

– خير له أن يحذر، وإلاّ فإن كفّ ضابط يمكن أن تسحق أذنيه بسرعة.

twitter @baghdad_library

ومضيا نحو العريش.

مكث يوحنّا زمناً قصيراً بمكانه، وإن بدا له زمنا لا متناهياً! أبله وحزين كلّ ما يحيط به، الآن، أضحى غريباً. الملازم أوّل يشكّ في أنه يغازل ڤكتوريا، وهي تحاول أن تشرح الوضع. قالت كلّ ما يريد سماعه ليطمئنَّ قلبه العسكريّ، وسارت بجواره. والزّرازير تغنّي على الأغصان فوق رأسيهما. حسناً، لينعم الله عليهما بحياة سعيدة مديدة. لقد ألقى خطاباً على شرف ڤكتوريا وستر انفعالها المخزي، ومع ذلك لم تكلّف نفسها مشقّة شكره. رغماً عن أنّ هذه الحركة كلّفته غالياً.. لم تفعل غير أنْ رفعت كأسها وشربت «في صحّتك، وانظر كيف أشرب بأناقة ولباقة..»

بخصوص هذا الأمر، لاحِظ امرأة ما، بشكل جانبيّ، وهي تشرب. قدِّم لها شراباً في كأس، في فنجان، أو في أيّة آنية أخرى، وراقبها من موقع جانبيّ. سوف تتصرّف بطرق مختلفة. أمر مرعب حقّاً! ستدبّب فمها، وتغطس طرف شفتيها داخل المشروب، وستفقد سيطرتها على نفسها، خلال هذه العمليَّة، بمجرّد ما ينتبه أحد إلى كفّها. لا تنظر أبدا إلى كفّ امرأة! لن تتحمّل ذلك، وسوف تعترف بهزيمتها. ستسحبها، تضعها بطريقة أكثر إثارة للانتباه، كلّ هذا بغرض ستر تجعّد، أو إصبع ملتوٍ، أو ظفر معيبٍ... وحتّى تحسم الأمر، تعلن بانزعاج «إلى ماذا تنظر بهذا الشّكل...؟»

قبّلته، مرّة، ذات صيف. مضى على هذا الحدث زمن طويل. ولكن، أحقّاً لم يجلسا على مقعد الحديقة؟ ألم يتحدّثا طويلا،

ويقتربا، وهما يسيران، حتّى تلامست أنامل كفَّيْهما؟ ألم تقبّله على مقربة من باب وتعترف «أحبّك»... مرّا، منذ قليل، قبالته، ربّما لا يزالان تحت العريش. والملازم أوّل يرغب في أن يصفعه. سمعه يقول هذا. لم يكن نائماً، ومع ذلك لم ينتفض لمواجهته. قال: كفّ ضابط... رائع، هذا يجعله غيْرَ مبالٍ بصورة كليّة.

نهض واتجه نحو العريش. كان خاليا. في اللّحظة نفسها، نادته كاميلا من شرفة القصر:

– تعال يوحنّا، تُقَدَّم القهوة في الحديقة الشتويّة.

التحق بها يوحنّا، وعندما وجد الخطيبين هناك، حمل فنجانه وبحث لنفسه عن مقعد.

ابتدأت كاميلا تحدّثه. كان وجهها صافيا ونظراتها شفّافة؛ لم يستطع مقاومة لطفها، وأخذ يردّ عليها بمرح. إلى أين تذهب؟ إلى الحديقة؟ غير صحيح، بحثَت عنه في كلّ مكان، دون جدوى.

– هل كان في الحديقة، ڤكتوريا؟، سألت.

– كلاّ لم أصادفه هناك.

رماه الملازم أوّل بنظرة حاقدة، ورغب في تحذيره عن طريق مناداة مالك الأراضي بصوت مبالغ في قوّته:

– ألم تقل إنك سوف ترافقني لاصطياد الحجل على أراضيك؟

twitter @baghdad_library

– طبعاً، بكلّ سرور.

نظر الملازم أوّل إلى ڤكتوريا التي أظلمت ملامحها فجأة، بعدما كانت غير مبالية. وبحركة متعجّلة، أخذ يمسّد لحيته.

كانت كاميلا تستأنس، للتوّ، بحديثها مع ڤكتوريا عندما وثب الملازم أوّل واقفاً، وهو يخاطب مالك الأراضي:

– حسناً، في هذه الحال، سوف أرافقك هذا المساء بالذات.

هكذا غادر القاعة، متبوعاً بمحدّثه وبعض المدعووين، مخلّفين وراءهم صمتاً ثقيلاً. فجأة، فُتح الباب من جديد، واخترق الملازم أوّل القاعة هائجاً.

– هل نسيت شيئاً؟، سألته ڤكتوريا وهي تنهض.

لم يردّ، ولكنه نطّ خطوات بالقرب من الباب، كما لو أنه فقد توازنه،ثمّ انقضّ على يوحنّا

كأنّه اصطدم به صدفة وهو يمرّ. قبل أن ينطّ منصرفا، من جديد، نحو الباب حيث توقّف والتفت.

– انتبه، أيها السيّد، ضربتني على عيني، قال يوحنّا بصوت وقور ومرح في نفس الآن.

– أنت مخطئ، ردّ الآخر، لقد صفعتك، أتفهم؟ أتفهم؟.

أخرج يوحنّا منديلا وأخذ يمسح عينه.

– هل تمزح؟، فنّد يوحنّا وهو ينهض، تعرف جيّدا أنّ في مقدوري أن أطويك على أربع، وأضعك في جيبي!

مأخوذا بالذّعر، فرّ الملازم أوّل مسرعاً وهو يصيح:

– أنا لا أمزح، أتفهم أيّها الفلاّح، لا أمزح!

وصفق الباب من خلفه بوحشية.

عاد يوحنّا إلى مكانه. وظلّت ڤكتوريا شاحبة مسمّرة وسط القاعة؛ تنظر إليه دون أن تتلفّظ بكلمة.

– هل ضربك؟ سألت كاميلا باندهاش لا حدود له.

– سهواً، نعم. ضربني على عيني. هل ترغبين في رؤيتها؟

– ياالله، تبدو حمراء بالكامل، والدّم يسيل منها! كلاّ، لا تحكّها، دعني أضع عليها كمّادة مبتلّة. منديلك ليس ناعما بما فيه الكفاية، سوف أستعمل منديلي. انظر هذا. وسط العين مباشرةً.

أخرجت ڤكتوريا، بدورها، منديلها، كما لو أنَّها تنوي الإِقتراب من صديقتها. ولكنّها لم تفعل شيئاً. اتجهت نحو البوّابة الزجاجيّة حيث مكثت تنظر إلى الخارج، وهي تمزّق منديلها قطعاً صغيرة.

لحظات بعد ذلك، غادرت القاعة من دون أن تتلفّظ بكلمة.

twitter @baghdad_library

توّجهت كاميلا نحو المطحنة طبيعيًّة مرحة. كانت وحيدة، واخترقت البناء الصغير وهي تقول مبتسمة:

–معذرة للجميع، لم أطرق الباب قبلاً. رأيت ألاّ فائدة وراء ذلك، مادام النهر يُحدث ضجيجاً كبيراً.

نظرت من حولها ثمّ أضافت:

–يا للبهجة! هذا مكان رائع! أين يوحنّا؟ أنا إحدى معارفه، كيف حال عينه؟

قدّموا لها كرسيّا فجلست.

تمّت المناداة على يوحنّا. عينه لا تزال محقونة دماً.

– حضرْتُ من تلقاء نفسي، قالت كاميلا وهي تدنو منه، رغِبْتُ في ذلك.ينبغي أن نواصل وضع الكمّادات الباردة على عينك.

– ليس ثَمَّة داع لذلك. بالله عليك،كيف واتتك فكرة المجيء إلى هنا؟ أترغبين في رؤية الطاحون؟ لطفٌ منك أن تفكّري في زيارتي! أقدّم لك أمّي، أضاف وهو يطوّق خصرها بألفة.

ونزلوا إلى الطاحون.

نزع الطحّان العجوز قبّعته وتمتم بكلمات لم تسمعها كاميلا. ولكنَّها ابتسمت في وجهه وردّت بالصدفة المحضة:

– شكراً، شكراً جزيلاً سيّدي، نعم، سوف أكون سعيدة برؤية الطاحون.

أرعبها الهدير المفاجئ الذي انبعث، فجأة، من الطاحون، فتمسّكت بذراع يوحنّا، وأخذت تنقل نظراتها بين الرجلين في حال تكلّم أحدهما، أشبه ما تكون بخرساء. لقد ملأها دوران الطاحون وآلية اشتغاله بالدهشة، فأخذت تضحك، وتهزّ ذراع يوحنّا مستمتعة، وتقوم بحركات كثيرة غير منتظمة.تمّ إيقاف الطاحون لحظة. ثمّ أعيد تشغيله، من جديد، لتدرك الفتاة كيفيّة تشغيله.

وعلى الرغم من مرور زمن طويل على زيارتها للطاحون، كانت كاميلا لا تزال تتحدّث بصوت مرتفع، كان فعل ذلك مضحكاً ، قيل إنّ ضجيج الطاحون لا يزال عالقاً بأذنيها.

رافقها يوحنّا، بعد ذلك، إلى القصر.

twitter @baghdad_library

– هل تفهم لماذا ضربك أوطو على عينك؟، سألت، ومباشرة، بعد ذلك، خرج للصّيد. يا لها من حكاية مرعبة! لم يغمض لڤكتوريا جفن طوال الليل.

– سوف تنام جيّدا هذه الليلة. متى تنوين الرحيل؟

– غداً. و أنت متى تعود إلى المدينة؟

– في موعد الدخول المدرسي، هل يمكن رؤيتك بعد ظهر هذا اليوم؟

–أوه، نعم، بكلّ سرور!، صاحت، حدّثتني عن مغارة تملكها، ينبغي أن أزورها.

– سوف أصطحبك إليها.

في طريق عودته إلى البيت، جلس على حجر يتأمّل وقتاً طويلاً. فكرة بهيجة رائعة شغلت لبّه.

بعد الظهر، وصل إلى القصر وأرسل في طلب كاميلا. وبينما كان ينتظر بالقرب من المدخل، ظهرت ڤكتوريا لحظة قصيرة من شرفة بالطابق الأوّل؛ أمعنت النظر إليه، ثم استدارت واختفت.

خرجت كاميلا؛ اصطحبها إلى المقلع والمغارة. لقد أفلحت الفتاة في تغيير أفكاره بعباراتها البسيطة الرقيقة، التي ترفرف حوله أشبه ما تكون ببَرَكاتٍ صغيرة، تمنحه السّكينة والطمأنينة. كان الحظّ، اليوم، حليفه..

– أتذكَّر، كاميلا، أنك أهديتني يوما خنجرا في غمد فضيّ، وضعته في صندوق مع بعض الأغراض الأخرى، لأنني لم أكن أستعمله.

– وبعد؟

– حسناً... ضاع منّي.

– يا للأسف! ربّما استطعت العثور على مثله. سوف أحاول على كلّ حال.

كانا في طريق العودة.

– وهل تذكرين ميداليَّة الذهب التي منحتني إياها؟ كانت ضخمة ثقيلة، ونقشت عليها كلمات لطيفة.

– بلى، أتذكّرها.

– قدّمتها هديّة في العام الماضي، عندما كنت خارج الوطن لا أزال.

– أوه، كلاّ! أهديتها لأحد؟ لماذا؟

– قدّمتها لصديق شاب. كان روسيّا. ارتمى على ركبتيه يشكرني.

– هل أبهجه الأمر إلى هذا الحدّ؟ طبعاً، مادام ارتمى على ركبتيه، هذا يعني أنَّه جنّ من الفرحة. سوف أمنحك مثيلا لها، ولكن لا تعطها لأحد هذه المرّة.

twitter @baghdad_library

كانا وصلا إلى الطريق المفضي من الطاحون إلى القصر، عندما توقّف يوحنّا عن السير:

– هنا، قريباً من هذا الدغل، حدث لي شيء. عندما كنت أسير ذات مساء، كما أفعل دائما كلّما شعرت بالوحدة. كان الفصل صيفاً والسّماء صافية، انعزلت خلف الدغل لأتأمّل. عند هذه اللحظة بالذات، عبر شخصان الطريق الضيّق. توقّفت السيّدة، وسألها رفيقها:

«لماذا توقّفت؟». وعندما لم تردّ عليه أضاف: «هل ثمّة شيء ليس على ما يرام» «كلاّ، قالت، ولكن لا يجوز أن تنظر إلي هكذا» «أنظر إليك، وهذا كلّ ما في الأمر» أجاب. «نعم، أعرف أنّك تحبّني، ولكن أبي لن يقبل بهذا، أتفهم؟ هذا مستحيل» «نعم، مستحيل، بكلّ تأكيد» تمتم، ثم أضافت «ما أوسع قبضتيك، أنظر كم أصابعك طويلة!»، وداعبت قبضته.

– نعم، وماذا بعد؟ سألت كاميلا بعد صمت.

– لا شيء، أجاب يوحنّا. ولكن، لماذا تحدّثت عن قبضتيه في رأيك؟

– ربّما لأنهما تبدوان جميلتين من خلال زند قميصه الأبيض. أوه، نعم، أعرف هذا جيّدا. ربّما كانت تحبّه أيضاً.

– كاميلا! لنفترض أنّني أحببتك كثيراً، وانتظرت سنوات

طوال قبل أن أسألك ببساطة... بكلمة واحدة، لست أهلاً لك، ولكن، أتظنّين أنّك ترغبين بي لو سألتك هذا السؤال بعد عام أو عامين؟

لا جواب.

كانت كاميلا قد اشتعلت خجلا والتباسا، وأخذت تتلفّت من حولها وهي تلوي أصابعها متوتّرة.

طوّق خصرها بذراعه، وأصرّ:

– هل تعتقدين أن هذا سيكون ممكنا؟

– نعم. أجابت وهي ترتمي بين ذراعيه.

في الغد، رافقها إلى محطة القطار.

قبّل كفيها الصغيرتين، البريئتين، بامتنان وبهجة. لم تكن ڤكتوريا بالقرب منها:

– لماذا لم يرافقك أحدهم؟

أوضحت له كاميلا، بنظرات مذعورة، كيف أنّ القصر في حداد وغمّ؛ وصل تلغراف هذا الصباح نفسه. أضحى وجه سيّد القصر مثل الجير، وانهار كلّ من الأمين وزوجته ألما. قُتل أوطو في جولة صيد مساء أمس.

وتمسّك يوحنّا بذراع كاميلا.

– مات؟ الملازم أوّل؟

twitter @baghdad_library

– نعم. سوف يُحضرون الجثّة. هذا مرعب.

تابعا طريقهما وكلّ غارق في تفكيره.لم ينتبها إلاّ بفعل ضجيج النّاس على الرّصيف، ممزوجا بصوت الباخرة وأوامر القوّاد. مدّت له كاميلا كفّها بسذاجة فلثمها.

– أعلم أنَّني لست أهلا لك كاميلا، بأيّ حال من الأحوال. ولكنّني سوف أعمل كلّ ما في وسعي لأجعلك سعيدة، إذا رغبت بي، طبعا.

– نعم، أرغب بك، رغبت بك دائما.

– سوف ألتحق بك في غضون أيام قلائل، أعدك.

– هو ذاك، نلتقي في الأسبوع المقبل.

صعدت إلى الباخرة. ودّعته بإشارات من كفّها قدر ما استطاعت. وعندما استدار يروم العودة، كانت ڤكتوريا خلفه تلوِّح لكاميلا بمنديلها.

– جئت متأخرة قليلاً، قالت معتذرة.

لم يردّ. ماذا في وسعه أن يقول؟ تعزيتها في مصابها؟ تهنئتها؟ الشدّ على يدها؟ كان صوت ڤكتوريا بدون نبرة، وبدا على وجهها تعبير الحيرة ودلالات حدث جللٍ.

أخذ الناس يغادرون الرصيف.

– عينك لا تزال حمراء، لاحظت وهي تأخذ طريقها.

لم يتحرّك. بحثت عنه بنظراتها ورجعت إليه.

– مات أوطو، قالت بصوت قاس وعيناها تلمعان، ألا تنبس بكلمة؟ أيبلغ بك الكِبر هذا الحدّ؟ كان أفضل منك مائة ألف مرّة، أتسمع؟ هل تعرف كيف مات؟ طلقة بندقيّة اخترقت رأسه، رأسه الصّغير الغبيّ. كان أفضل مائة ألف مرّة...

انفجرت باكية، وعادت إلى القصر بخطوات واسعة يائسة.

في وقت متأخّرٍ من نفس المساء، طرقت باب الطحّان؛ فتح يوحنّا ليجد ڤكتوريا تشير إليه بأن يتبعها. نفّذ. التقطت كفّه بخشونة وجذبته إلى الطريق. كانت كفّها مجمّدة.

– ولكن، اجلسي، قال، اجلسي وارتاحي لحظة. أنت متعبة.

وجلسا معا.

– ماذا ستظنّ بي، أنا التي لم تتركك تنعم بالسلام قطّ؟ تمتمت.

– أنت حزينة جدّا، قال، عليك أن تصغي إلي جيّدا، ڤكتوريا، وتهدإي.. هل أستطيع أن أفعل شيئا من أجلك؟

– بحقّ الربّ، سامحني على ما تلفّظت به أمامك هذا الصباح! نعم، أنا تعيسة جدّا، بل إنني تعيسة منذ سنوات طوال.

twitter @baghdad_library

قلتُ إنّه كان أفضل منك مائة ألف مرة؛ هذا ليس صحيحاً، سامحني، لقد مات وكان خطيبي، هذا كلّ شيء. يوحنّا، لعلّك تظنّ أنني كنت راضية عن الخطبة؟ أترى هذا الخاتم؟ إنه خاتم خطبتي، تسلّمته منذ زمن بعيد، والآن أرميه. نعم، أرميه!

ورمت الخاتم وسط الأحراش بعيداً، وسمعا وقع سقوطه.

– كانت الخطبة أمنية أبي، الفقير، المتسوِّل، وأوطو الذي سوف يصبح غنيّا ذات يوم! «عليك أن تطيعي» يقول أبي «لا أريد» أجيب أنا. «فكّري في والديك، فكّري في القصر، في سمعة نسبنا، في شرفي» «حسنا امنحني ثلاث سنوات وأضعه» يشكرني أبي وينتظر. أوطو ينتظر بدوره؛ العالم كلّه ينتظر. منحوني الخاتم على الفور، وأخذ الوقت يمرّ، وانتهيت إلى أن لا شيء سوف يحدث. لماذا الانتظار أكثر؟ «اذهب، إذن، أحضر لي زوجي» قلت لأبي يوما، «ليباركك الله يا ابنتي» علّق أبي يشكرني، من جديد، لأنَّني قبلت. وجاء أوطو. لم أكن لأستقبله على الرصيف، وبقيت أراقبه من نافذة غرفتي وهو يقبل بسيّارته. ثمّ عدوت نحو أمي وارتميت تحت قدميها «ما بك صغيرتي؟» سألتني. «لا أستطيع، لا، لا أستطيع أن أتزوّجه. إنّه هنا، في الأسفل. خذوا تأمين حياة باسمي، وسوف أختفي في الشرم أو داخل شلاّل. هذا أهون عليّ...» شحب وجه أمّي وانخرطت في نحيب مسموع. صعد أبي «هيّا، عزيزتي ڤكتوريا، عليك أن ترحّبي بخطيبك» «لا أريد، هذا مستحيل» توسَّلت إليه، التمست رحمته وطلبت منه أن يحرّر

تأمين حياة باسمي. ولكنّ أبي لم يردّ. حمل كرسيّا، جلس عليه وأخذ يفكّر مرتعشاً. لم أستطع المقاومة، ورضخت: «استدعه إذن، أنا موافقة».

وصمتت ڤكتوريا. كانت تترنّح من فرط الاضطراب. التقط يوحنّا كفّها الأخرى، وأخذ يدفئها.

– شكراً يوحنّا، كن لطيفاً، شدّ على كفّي بقوَّة. أرجوك! يا الله، كم هي دافئة كفّك! أنا مدينة لك. ولكن ينبغي أن تنسى ما تفوّهت به اليوم على الرّصيف.

– هذا ما حدث بالفعل. هل ترغبين في أن أحضر لك شالاً؟

– لا، شكراً. ولكنّني لا أفهم لماذا أرتعش بهذا الشكل في حين أنَّ دماغي ملتهبة. يوحنّا، عليّ أن ألتمس منك غفران أشياء كثيرة...

– كلاّ، لا تفعلي. ها قد صرتِ أكثر هدوءاً الآن. ولكن إِبقي جالسة.

– ألقيتَ خطاباً على شرفي.ومنذ اللحظة التي انتصبتَ فيها واقفاً إلى أن أنهيت خطابك وجلست، لم أكن أعرف ماذا أفعل؟ اكتفيت بالإصغاء إلى نبرة صوتك؛ أشبه ما تكون بنغمة أرغن. وكنت يائسة ومأخوذة بالنغم في الوقت نفسه. سألني أبي لماذا صرخت لأقاطعك، ولكن أمي لم تسألني. فهمت؛ بُحت لها بكلّ شيء منذ سنوات خلت، وعندما عدت من المدينة حكيت لها

twitter @baghdad_library

عن المرّة التي التقينا فيها...

– دعينا لا نتحدّث عن هذا، من فضلك.

– أرجوك، كن متسامحاً! ماذا كان بمقدوري أن أفعل؟أبي أشبه ما يكون بالمجنون؛ هناك، في البيت، لم يكن يتوقّف عن الذهاب والمجيء داخل مكتبه، يعتبر الأمر كارثة بالنسبة إليه.. كلّ ما استطاع أن يقرّره، هو أن يمنح عطلة لكلٍّ الخدم غداً الأحد. سحنته رمادية، ولم ينبس ببنت شفة منذ أن وصله خبر موت صهر المستقبل. قلت لأمّي أنني سوف آتي لأراك. «ينبغي أن نرافق، أنا وأنت، الأمين وزوجته غداً إلى المدينة» أجابتني «سوف أذهب عند يوحنّا» كرّرت «لا يملك أبوك المال الكافي لتغطية نفقات سفرنا، نحن الثلاثة، إنه يفضّل البقاء في البيت بمفرده» أضافت، لتوجّه الحديث نحو شيء آخر. وعندما واقتربت من الباب، كانت أمي ترقبني، فأخبرتها «سوف أذهب إليه» قلت للمرّة الأخيرة. عندئذ، التحقت بي أمّي، قبّلتني وقالت:

«ليبارككما الله أنتما الاثنين»

ترك يوحنّا كفّي ڤكتوريا:

– ها قد دفئت قليلا.

– شكراً جزيلاً؛ دفئت، دفئت كثيرا الآن. بارك الله فيك، قالت، بحْتُ لأمي بكلّ شيء، كانت دائما على علم «ولكن من تحبّين، إذن، يا ابنتي العزيزة» «هل لا زلت تسألينني؟ أجبت، مَنْ

غير يوحنّا أحبّ؟ هو ولا أحد غيره؛ لم أحبّ في حياتي أحداً غيره، ولن أحبّ...».

وتململ في مكانه.

– الوقت متأخِّر. ربّما قلقوا عليك في البيت؟

– كلاّ، أنت تعلم جيّدا أنني أحبّك، يوحنّا. تعلم هذا، أليس كذلك؟ افتقدتك طوال هذه السنوات الأخيرة لدرجة لا يمكن لأحد أن يتخيّلها. أعبر هذا الطريق وأقول لنفسي: «سوف أتوغّل في الغابة قبله، سوف أتمشى قريباً من الطريق، لأنه يمرّ دائما من هناك» كنت أفعل ذلك حقّا. وفي اليوم الذي علمت فيه أنك سوف تعود، ارتديت ملابسي في وقت مبكر جدّا؛ ملابس صفراء خالصة، كنت مرهقة صبراً وقلقاً، وكنت أذهب وأجيء من قاعة إلى أخرى «أنتِ متلألئة اليوم» لاحظت أمّي. وأخذت أردّد بدون توقّف «لقد عاد! إنه رائع! ولقد عاد! رائع وعاد!». وفي الغد، لم أحتمل الانتظار. ارتديت ملابسي، من جديد، في وقت مبكر، وصعدت إلى المقلع لكي ألقاك. هل تتذكّر؟ وجدتك، ولكنّني لم أقطف ورودا، كما ادّعيت، لم يكن ذلك سبب جولتي. منذ ثلاث سنوات خلت، كنتَ تمسك غصناً تلوّح به في الهواء؛ عندما انصرفتَ، التقطتُه، خبّأتُه وحملته معي إلى غرفتي.

– طيّب ڤكتوريا، ولكن، لا ينبغي أن تحكي لي مثل هذه الأمور.

– كلاّ، وافقته وهي تشدّ على كفّه برعب، كلا، لا يجوز ذلك،

twitter @baghdad_library

لا، لا تريد أن تسمع هذا أبداً، ما في ذلك شكّ.

أخذت تداعب كفّه بحركة عصبيَّة.

-كلاّ، لا يمكن أن أرغمك على سماع هذا. قبل كلّ شيء، جعلتك تعاني كثيراً. هل أطمع في أن تغفر لي يوما ما صنعتُ بك؟

– بالطبع، أغفر كلّ ما تريدينه، ليست هذه هي المسألة..

– ما المسألة إذن؟

انتظر لحظة قبل أن يردّ:

– لقد خطبتُ كاميلا.

صباح الأحد، ذهب سيّد القصر في أثر الطحّان يطلب منه حمل جثّة الملازم أوَّل إلى الباخرة، ساعة الغداء. بدا على الطحان عدم الفهم، وأخذ ينظر إليه مليّا. أوضح السيّد بسرعة أنَّه منح عطلة لكلّ خدمه كي يتمكّنوا من الذهاب إلى الكنيسة، وأنّه لم يجد من يساعده لإتمام المهمَّةً.

كان واضحاً للعيان أنَّه لم يتمكّن من النّوم الليل كلّه؛ فهو غير حليق، ويبدو في هيئة حفّار القبور، ومع ذلك يبدو حازماً، وهو يلوّح بعصاه كما هي عادته.

ارتدى الطحّان أجمل سترة لديه وتوجّه نحو القصر. وما أن سُرِّجَتْ الخيول حتى أقبل سيّد القصر ليساعده في رفع التابوت ووضعه على العربة. مرّ كلّ شيء في صمت، في خفاء تامّ وبدون شهود.

أمامهم؛ الأمين وحرمه، سيّدة القصر وڤكتوريا، بينما وقف

twitter @baghdad_library

سيّد القصر على السلَّم يحيّيهم أكثر من مرة، بينما الريح تعبث بشعره الرمادي.

ركب الأربعة خلف التابوت، وهمست ڤكتوريا وأمّها إلى الطحّان توصيانه بأن يُطَمئِن سيّد القصر ويطمئِنّ عليه.

ظلّ الرجل الطيّب ينظر برهة إلى الباخرة وهي تبتعد مخترقة سحاباً من بخار! كانت الريح تحرّكت قليلا والمياه أصبحت قويّة، وهو ما استلزم عبور الباخرة خلف الجزر حوالي ربع ساعة. وعاد الطحّان إلى بيته ليودِع خيول الإسطبل ويقدّم لها العلف، ثم توجّه نحو القصر ليُطمئن سيّده على سفر النّسوة. كان باب المكتب مغلقاً، واضطر إلى أن يطوف حول البيت عساه يدخل من البابِ الرئيسي. لكنّها كانت مغلقة أيضاً. «إنّها ساعة القيلولة، لا شكَّ أنّ السيد في غفوة» فكّر. ولكن، بما أنه صاحب ضمير، قرّر ألاّ ينصرف قبل أن ينجز مهمّته ويُطمئن السيّد. نزل إلى صالة الخدم لعلّه يجد أحدا يبلّغه رسالة السيّدتين. لا أثر لمخلوق هنا ولا حسّ. خرج وذهب حتّى صالة الخادمات: لا أحد، البيت كلّه خالٍ.

كان يوشك على الاستسلام عندما لمح نقطة نور منبعثة من القبو. وعبر النوافذ الصغيرة المسيّجة، استطاع أن يميّز بجلاء رجلا يدخل القاعة في يده شمعة، وفي اليد الأخرى كرسيّ بقاعدة حريرية حمراء. إنه سيّد القصر. كان حليقاً، منتعشا، يرتدي زيّاً رسميّا «ربما أمكنني الطّرق على زجاج النّافذة وإبلاغه سلام زوجته» فكّر الطحّان، ولكنّه لم يفعل.

التفت سيّد القصر من حوله، الشمعة مرفوعة، كأنّه يبحث عن شي ما. عثر على كيس يبدو أنّه يحوي قشّا وحشائش... وضعه بمحاذاة بوّابة الدخول، قبل أن يفرغ ما في الصحيفة من سائل. ثمّ أخذ يكدّس ركام القشّ وبقايا كرسيّ وبعض الأغراض المرميّة بالقرب منه قبل أن يسقي كلّ ذلك بغزارة. ولاحظ الطحّان، إثر ذلك، أنَّ سيّد القصر يبدو حريصاً، من خلال قيامه بكلّ هذه الأعمال، على ألاّ يلطّخ يديه أو يلوّث ثيابه. يمسك الشمعة الصغيرة، يضعها على الكيس بعد أن يُحكم تغطيته بالقش، ويذهب ليجلس على الكرسيّ.

تابع الطحّان هذه الاستعدادات مذهولا، بعينين مذعورتين، وإحساس معتم ينمو في أعماقه. وانصرف سيّد القصر، وهو جالس بهدوء على كرسيه جامعاً يديه، إلى تأمّل الشّمعة تذوب أمام ناظريه.ولاحظ الطحّان، مرّة أخرى، أنّه نفض بقعة غبار علقت بذراعه ثمّ عاد ليجمع يديه من جديد.

عندئذ، فقط، أطلق الطحّان المذعور صرخة مدويَّة.

التفت سيّد القصر نحو النافذة، هبّ واقفاً، اقترب من أحد إطاراتها لينظر إلى الخارج. كانت عيناه تعكسان كلّ معاناة الدّنيا، وفمه ملتوٍ عن تكشيرة مرعبة.. وبدون أن ينبس ببنت شفة، لوّح للطّحانَ بقبضتيه مهدّداً، ثمّ أرخى إحدى يديه لتسقط، تراجع إلى أن اصطدم بالكرسي؛ فسقطت الشّمعة. وارتفعت سحابة دخان عظيمة.

twitter @baghdad_library

أخذ الطحّان يصرخ من فرط ذعره، وشرع يجري في كلّ اتجاه ويطوف حول البيت عاجزا، ثمّ اقترب من نافذة القبو، وبدأ يحاول تكسير الإطارات الزجاجية الصغيرة وهو يصرخ بقوة. نجح في الانحناء قليلا والتمسّك بالقضبان الحديدية، وأخذ يجذب ويشد إلى أن اقتلعها.

انبعث من القبو عواء مريع متبوع بأنين محتضر. سمعه الطحّان للحظات قبل أن يفرّ بجلده إلى البيت من دون أن يجرؤ على العودة وحيداً من جديد. بعد ذلك بقليل رجع إلى القصر بصحبة ابنه يوحنّا. كان البيت الكبير مشتعلا. وأقبل رجلان مسرعين من جهة الرصيف، لكن لم يعد ثمّة ما يمكن فعله.كلّ شيء ضاع.

فم الطحّان لن تبوح بالسرّ أبدا.

يسأل أحدهم عن الحبّ. نجيب «الحبّ رياح توشوش الحقول الوردية قبل أن تسقط. ولكن يمكن أن يكون أيضا خاتما محصّنا حتى الموت. خلق الله من الحبِّ أصنافاً شتّى: تلك التي تدوم، والأخرى التي تتلاشى».

امرأتان تتجوّلان مدردشتين. إحداهما ترفل في ملابس من الأزرق البهيج؛ حبيبها رجع على التوّ من السفر. الأخرى في حداد. كان لها ثلاث فتيات، إثنتان سمراوان، وواحدة شقراء. قضت الشّقراء منذ حوالي عشر سنوات، ولكن الأمّ لا تزال ترتدي عليها لباس الحداد.

– يا له من نهار رائع!، أعلنت الأولى وهي تضرب كفًّها، الحرارة تلفحني، الحبّ يسحرني، أنا سعيدة حقًا. حتى أنّ بي رغبة في أن أتعرّى هنا، في الشارع، وأن أمدّ ذراعي نحو الشمس لأعانقها.

تواصل الأخرى صمتها، ولا تبيِّن عن بسمة أو جواب.

– ألا تزالين ترتدين ملابس الحداد على الصغيرة؟، سألتها الصديقة ببراءة، مرّت عشر سنوات على رحيلها، أليس كذلك؟

– بلى، كانت ستبلغ الخامسة عشرة من عمرها هذا العام؟

– ولكن، أليس لك فتاتان أخريان؟

– طبعا، لكن لا يشعّ منهما أيّ نور؛ الفقيدة كانت مضيئة، أجابت المرأة الملتفّة بالسواد وهي تنخرط في نحيب مسموع.

وافترقتا، أخذت كلّ واحدة منهما طريقاً مختلفاً، كلّ واحدة رفيقة حبّها الحميم...

لكلّ من الفتاتين السمراوين حبيب، غير أنهما مغرمتان بالشخص نفسه. ذات يوم، ذهب الأخير للقاء البكر وقال لها:

– أحبّ أختك وجئت أستشيرك.لقد خنتها البارحة؛ باغتتني وأنا أقبّل خادمتكم في الممرّ. صرخت، ثم ابتعدت. ماذا يجدر بي أن أفعل في حالة مماثلة؟ أحبّ أختك، كلّميها من فضلك، ساعديني، أتوسّل إليك!

twitter @baghdad_library

شحبت الفتاة ورفعت كفّها إلى قلبه، ثمّ ابتسمت، كما لو أنها سترقّيه، ووعدت:

– سوف أساعدك.

في الغد، يرجع إلى الصّغرى، يرتمي تحت قدميها ويعرب عن حبّه.

تتفحّصه ببرود:

لا يمكنني، للأسف، أن أمنحك غير ورقة نقدية من فئة عشر كورونات، إذا كان هذا ما تريده. ولكن، اذهب للقاء أختي، فإن لديها من المال أكثر ممّا لديّ!

وغادرت مرفوعة الرأس.

بمجرّد ما وصلت إلى غرفتها، سقطت على الأرض، وهي تعصر كفّيها يأساً.

أقبل الشتاء، وعاد البرد برفقة موكبه الضبابي، الريح والغبار احتلاّ مكانهما في الطرقات. التحق يوحنّا بغرفته القديمة بالمدينة، وأخذ يصغي، من جديد، إلى أنين الحور على جدران بيته الخشبية، ويشهد ميلاد النهار عبر شرفته. لكن الشمس لن تكون في الموعد الآن.

استغرقه عمله، وأخذت الصفحات تسودّ مع مرور الأيام وتتكدّس على الطاولة.كانت ثمرة سلسلة من المغامرات في موطن

أحلامه، هذا الموطن الذي يشبه ليلة خالدة، حمراء مثل الشّمس.

تتعاقب الأيام من دون أن تشبه بعضها بعضاً. أحياناً، مجرّد ذكرى أو نظرة، أو كلمة تغوص به في الماضي وتعكّر صفو خاطره. عندئذ، ينتفض واقفاً ويجوب غرفته ذهاباً وإياباً، كما كان يفعل في الماضي، ويسطِّر على الأرضيِة الخشبيّة أخدوداً يبدو، عبره،كلّ يوم بشكل أكثر وضوحا.

«اليوم، أرهقتني الذكريات. لم أستطع العمل أو التفكير أو مجرّد استشعار الهدوء الضروريّ، قرَّرت، إذن، أن أدوّن كلَّ ما حدث لي الليلة. عزيزي القارئ، هذا يوم صعب جدّا بالنسبة إلي. الثلج يتساقط في الخارج، لا أحد تقريباً يجوب الشارع؛ كلّ شيء حزين وأحسّ بوحدة رهيبة. تمشيت في الشوارع وفي غرفتي ساعاتٍ طوالاً لعلّي أقوى على التركيز. ها نحن ما بعد الظهر، ولا تزال الأمور ليست على ما يرام. أنا الذي ينبغي أن يشعر بالدفء، أحسّ بالبرد، وأبدو شاحباً أشبه ما أكون بقطعة جير. عزيزي القارئ، عليّ في مثل هذه الحالة الروحيَّة أن أحاول وصف ليلة صافية خلابة. يحتّم عليّ العمل أن أستعيد سكينتي، وهكذا، في غضون ساعات قلائل، ربّما أفلح في استعادة صفاء خاطري...»

ثَمَّة طَرْقٌ على الباب: تدخل كاميلا سيير، خطيبته الشابة السريّة.يضع ريشته وينهض. يتبادلان التحيَّة مبتسمين:

– لم تسألني عن أخبار الحفل الرّاقص؟، استهلّتْ الكلام

twitter @baghdad_library

وهي تتهالك على كنبة، لم أفوِّتْ ولو رقصة واحدة. انتهى الحفل في حوالي الثالثة صباحا. كما أنني رقصت مع ريشموند Richmond .

– شكرا لأنّكِ أتيتِ، كاميلا. أنا حزين، في حين تبدينَ مرِحة؛ ومرحك سوف يسعفني على الأقل في تجديد أفكاري، قولي، ماذا كنت ترتدين في الحفل؟

– الأحمر، بطبيعة الحال. يالله، لم أعد أتذكّر، ولكن لزم عليّ أن أتحدّث كثيرا، وأضحك كثيرا. كانت الأجواء لطيفة. نعم، كنت أرتدي لباسا أحمر، كسوة بدون أكمام، ولا حتى رسم أكمام. ريشموند يعمل بمفوضية لندن Londres .

– آه، جيّد.

– والداه إنجليزيان، ولكنّه وُلد هنا. ماذا فعلت لعينيك؟ تبدوان حمراوين، هل بكيت؟

–كلاّ، أجاب وهو ينفجر ضاحكاً، حوّلت النّظر نحو خيالي، حيث الشمس حارة جدّا. من فضلك، كاميلا، لا تمزّقي أكثر تلك الورقة.

– يالله، كم أنا طائشة! سامحني يوحنّا.

– لايهمّ، ليست إلاّ ملاحظات. ولكن قولي لي: كنت تضعين زهرة في شعرك، على ما أظنّ؟

– نعم، وردة حمراء، مائلة إلى السّواد قليلاً. هل تعرف، يوحنّا، أنّ قضاء شهر العسل في لندن سوف تكون فكرة طيّبة. ليس الأمر مرعباً كما يقال، ما يروى من حكايات حول الضباب ليس إلاّ اختراعات.

– من أخبرك بهذا؟

– ريشموند، وهو يدرك جيدًا عمّا يتحدّث. تعرفه، أليس كذلك؟

– لا، رفع يوما نخباً على شرفي. أزرار قميصه مرجانية. هذا كلّ ما أتذكّره عنه.

– فتى رائع. هل تعلم؟ عندما أقبل نحوي وقال لي بأدب: «الآنسة ربّما لا تتذكّرني...» أعطيته الوردة.

– فعلت هذا حقّا؟ أيّة وردة؟

– تلك التي كنت أزيّن بها شعري. وهبتها له.

– يبدو أنك أصبحت شغوفة بريشموند.

تورّد وجهها، وأخذت تدافع عن نفسها بشراسة:

–على الإطلاق. يمكن أن نقدّر شخصاً من دون... أنت مجنون يوحنّا، لن أتحدّث عنه أبداً.

– ليباركك الله كاميلا، لم أقصد.. لا تحسبي أنني.. على العكس، سوف أشكره لأنه حرص على تسليتك.

twitter @baghdad_library

– ينبغي عليك، أتعلم! من ناحيتي لن أكلِّمه أبداً. أبداً طوال حياتي.

– هذا جيّد، وافقها الرأي وبعد لحظة، هل تذهبين؟

– نعم، لا يمكنني أن أبقى وقتاً أطول. كيف حال عملك؟ سألتني أمّي عن الأخبار. بالمناسبة، لم أكن رأيت ڤكتوريا منذ أسابيع، وها قد التقينا أخيراً.

– متى؟

– عندما جئت إلى هنا، كانت تبتسم. يا لله، صارت ضامرة بشكل مرعب! قل لي، متى تزورنا؟

– قريباً، أجاب وهو ينتفض واقفا ووجنتاه ملتهبتان، بعد أيّام ربّما. عليّ، قبل ذلك، أن أكمل كتابة شيء. فكرة تخامرني من مدّة، عصارة مغامراتي. آه! سوف أكتب أشياء كثيرة، أشياء... حاولي أن تتخيّلي العالم المرئي من فوق؛ أشبه ما يكون برأس متوّج، بديع وغريب. يتجوّل الناس بين طيّاته أزواجا أزواجا، وعندما يأتي المساء، يهدأ كلّ شيء: إنها ساعة الحبّ. سوف يسمّى هذا السلالة. أظنّ أنَّ الأمر يصبح رائعا. غالبا ما انتابتني هذه الرؤيا، وفي كلّ مرّة كان صدري يوشك أن ينفجر، أتوق إلى أن أعانق الدنيا بأسرها. ها هي الخليقة، رجالاً وحيوانات وعصافير، كلّ في ساعة حبّه، كاميلا. موجة رضا تجتاح الكون، العيون تضيء وتخفق الصّدور بسرعة. حينئذ، تنبعث من الأرض

حمرة ناعمة: حمرة خجل كلّ هذه القلوب العارية، ويستعير اللّيل لون الورد. ولكن، في الوراء بعيدا، تنام الجبال الجليلة: لم تر شيئاً ولم تسمع! وفي الصّباح، يرسل الله شمسه الدافئة على الجميع.

– نعم.

– سوف آتي عندكم بمجرّد ما أنتهي.شكرا على زيارتك، كاميلا. ولا تفكّري في ما قلته لك. لا يعني هذا شيئا.

–لا أفكِّر في الأمر إطلاقا. ولكنَّني لن أتلفظ باسمه أبداً، أبداً.

رجعت كاميلا صباح الغد. كانت شاحبة وبادية الحزن.

– ما بك؟ سألها يوحنّا.

–أنا؟! لاشيء، أجابت بعجالة، أنت من أحبّ.. لا تحسبنّ أن شيئاً ما قد يحدث، أو أنَّني لم أعد أحبّك. فكّرتُ جيِّداً: لن نذهب إلى لندن، ما عسانا نفعل هناك؟ لا شكّ في أنَّ هذا الرجل لا يدري عمّا يتحدَّث. ثَمَّة وجود لضباب أكثر مما يظن. لماذا تنظر إلي هكذا؟! لم أتلفّظ باسمه. أيّ كذاب هو. لم يشأ إلاّ خداعي. لن نذهب إلى لندن.

نظر إليها بانتباه، وفهم فجأة:

– اتفقنا، وافقها حالماً.

– أليس كذلك؟ هذا قرار، لن نذهب إلى هناك. هل كتبت

twitter @baghdad_library

السلالة؟ يا لله، لو تعلم كم يهمّني هذا! إحرص على أن تكملها بسرعة وتلتحق بنا، يوحنّا. ساعة الحبّ. أليس كذلك؟ ورأس متوّج رائع بطيّاته، ليلة ورديّة.. لا أزال أتذكّر كلّ ما حكيته لي. لم أزرك كثيرا هذه الأيام الأخيرة. ولكن من الآن فصاعدا، سوف آتي كلّ يوم لأرى هل انتهيت.

– سوف أنتهي قريبا، قال وهو يثبت نظره عليها.

– جمعت كتبك اليوم لأضعها في غرفتي. أرغب في قراءتها من جديد. لن يتعبني هذا أبداً. على العكس، أسعدُ بذلك. إسمع يوحنّا، هل يمكن أن ترافقني إلى البيت، من فضلك؟ لا أدري، قد لا يكون الطريق آمنا بالنسبة إليّ. أتساءل، ربّما كان أحد ينتظرني في الأسفل. لست متأكّدة...

انفجرت باكية وتابعت كلامها:

– نعتُّه بالكذّاب، ما كان ينبغي أن أفعل. أخجل من نفسي. لم يكذب عليّ، أبداً، على العكس تماماً. كان دائماً... الثلاثاء، نستضيف مدعوّين في البيت، لكنّه لن يحضر. في حين عليك أن تحضر أنت؛ أتسمع؟ هذا وعد منك؟ ولكن، مع ذلك، ما كان ينبغي أن أتلفّظ بسوء. أتساءل ماذا سوف تظنّ بي...

– بدأت أفهم، قال.

ارتمت بين ذراعيه من فرط انفعالها، واختبأت في حضنه مرتعشة:

– نعم، ولكن أحبّك أنت أيضاً، اعترفت. لا تظنّن عكس ذلك. لست أحبّه لوحده، ليس الأمر خطيراً إلى هذا الحدّ. عندما طلبت يدي في السنة الماضية كنت مغمورة بالسعادة، ولكن ها قد جاء، ولست أدري ما يحدث لي. أليست هذه فظاعة من قِبَلي، يوحنّا؟ ربّما أحبّه أكثر منك قليلاً. ليس الأمر بيدي. هذا أقوى منّي.يا لله، لم يغمض لي جفن منذ تعرّفت عليه، وأحبّه أكثر فأكثر.ماذا عليّ أن أفعل؟ أنت أخي البكر، عليك مساعدتي. رافَقني إلى هنا، وهو ينتظر في الأسفل. ينتظرني ليصطحبني إلى البيت. ربمّا يشعر بالبرد. تحتقرني، يوحنّا؟ لم أقبّله. لا، ينبغي أن تصدّقني، لم أفعل غير أن وهبته وردتي. لماذا لا تردّ، يوحنّا؟ ينبغي أن تقول لي ما عليّ فعله، لأنني لم أعد أحتمل.

جلس يوحنّا يصغي إليها بصمت.

– ليس لديّ ما أقوله.

– شكراً، شكراً يوحنّا، لطف منك ألاّ تكون غاضباً، قالت وهي تمسح دموعها، ولكن لا تظنّ أنّني لا أحبّك أنت أيضاً. بالله، سوف آتي لزيارتك باستمرار، وأكثر من ذي قبل، سوف أفعل كلّ ما تريد. كلّ ما في الأمر، أنني أحبّه أكثر منك قليلاً. لم أكن أرغب بهذا. ليس هذا خطإي.

وقف من دون أن ينبس ببنت شفة، واعتمر قبّعته.

– هيّا بنا، اقترحَ.

twitter @baghdad_library

نزلا الأدراج.

ريشموند يقف أمام المنزل. شاب بشعر كستنائيّ وعينين بنّيتين مفعمتين بالفتوّة والحياة. كان البرد قد حمّر وجنتيه.

– هل تحسّ بالبرد؟ سألته كاميلا وهي تسرع نحوه.

صوتها يوشي بتأثّرها. ثمّ توجّهت نحو يوحنّا، وأدخلت ذراعها تحت ذراعه:

– آسفة لأنّني لم أسألك إن كنت أيضاً تحسّ بالبرد. لم تَرْتَدِ واقيتك، هل تحبّ أن أرجع إلى البيت أبحث لك عنها؟ لا؟ وإذن، اغلق أزرار سترتك على الأقلّ.

فعلت ذلك عوضا عنه.

شدّ يوحنّا على كفّ ريشموند. كان يعيش حالة التباس وغياب، كأنّ ما يحدث الآن لا علاقة له به، ولا يهمّه بحال من الأحوال. انتزع بسمة غير واثقة وتمتم:

– مغتبطٌ برؤيتك.

كتم ريشموند أيّ إحساس بالذّنب أو الأنانية وهو يسلّم على يوحنّا، كان يبدو سعيداً للقائه بالفعل.

– رأيت مؤخّراً إحدى مؤلّفاتك في واجهة مكتبة بلندن، قال، ترجمة. كان الموقف لطيفاً فعلا، لنقل تحيّة صغيرة من

الوطن.

تسير كاميلا بينهما، وتنقل نظراتها من هذا إلى ذاك بإنصاف خالص.

– وإذن، سوف تأتي يوم الثلاثاء، يوحنّا، قالت، اغفر لي، لا أفكّر إلاّ في أموري، أضافت ضاحكة.

وبعد لحظات خاطبت ريشموند ببعض خجل، والتمست منه الحضور أيضاً. لن يكون هناك إلاّ أناس من معارفنا، بعض العشرات من المدعوّين، من بينهم ڤكتوريا وأمّها.

–حسناً، هل يمكنني أن أنصرف، اقترح يوحنّا.

– موعدنا الثلاثاء، إذن. أجابت كاميلا.

شدّ ريشموند على كفّه بحرارة.

وابتعد الشابّان، سعيدين.

twitter @baghdad_library

ترتدي الأمّ الأزرق حزينة بشكل فظيع: تترقّب من حين لحين إشارة تأتيها من الحديقة، غير أنَّ الطريق لم يكن خالياً؛ لا أحد يستطيع العبور ما دام زوجها لم يغادر البيت. آه، على هذا الزّوج، هذا الرّجل ذي الأربعين من عمره بصلعته الملساء النّامية! أيّة فكرة شؤم سيطرت على ذهنه، وجعلته شاحباً هذا المساء، مسمّرا في كنبته، بدون حراك، بقسوة، وبنظرة ثابتة على جريدته؟

يعظم رعبها شيئاً فشيئاً، مرّت السّاعة الحادية عشرة، والأطفال اندسّوا في أسرّتهم منذ زمن ليس بالقصير، ولكن الزّوج لم يذهب بعد. وإذا دوّت الإشارة، إذا انفتح الباب بفعل المفتاح الصغير العزيز ووجد الرّجلان نفسيهما وجها لوجه... لم تجرؤ على مجاراة أفكارها حتى النهاية. كانت منزوية في الرّكن الأشدّ عتمة من الصّالون، تقضم أظافرها، وانتهت بأن أعلنت:

- هذه الحادية عشرة، إذا كنت ترغب في الذهاب إلى النادي، عليك أن تفعل الآن.

نهض على الفور، شاحباً، وغادر الغرفة، ثم البيت.

توقّف في الحديقة وسمع صفيرا، إشارة حقيقية، ثمّ سمع وقع خطوات على الإسفلت، وصوت مفتاح في قفل الباب، وأخيرا ظِلّين خلف ستائر الصّالون.

يعرف جيّداً الإشارة، الخطوات، الظّلال. لا شيء في كلّ هذا جديد عليه. توجّه إلى النّادي؛ كان مفتوحا، لا يزال النور ينبعث من نوافذه. ولكنّه لم يدخل. ظلّ يتسكّع في الشوارع القريبة من منزله زهاء نصف ساعة. «سوف أنتظر ربع ساعة» فكّر وانتظر. ثمّ قرّر العودة. عبر الحديقة، صعد السلالم وطرق الباب.

فتحت الخادمة، حرّكت رأسها وابتدأت بالكلام:

– السّيدة سبق وأن...

توقّفت عن الكلام، فجأة، عندما تذكّرت أنها تكلّم سيّدها، ثمّ أضافت:

– سبق وأن آوت إلى فراشها.

– حسناً، هلاّ أخبرت سيّدتك بأن زوجها رجع إلى البيت.

نفّذت الفتاة مشيئة السيّد؛ طرقت باب غرفة سيّدتها وأبلغتها عبر الباب المغلق:

– عليّ أن أخبرك بأنّ سيّدي رجع إلى البيت.

twitter @baghdad_library

وصاحت سيّدتها من الدّاخل:

–ماذا، سيّدك رجع؟ من أمرك بقول هذا؟

– سيّدي نفسه. إنّه هنا.

ثمّة وجود لنحيب أخذ ينبعث من الغرفة، مصحوبا بتمتمات مسرعة. انفتح باب وانغلق. ثمّ ساد صمت ثقيل.

دخل ربّ البيت. أقبلت زوجته للقائه، والموت في روحها.

– كان النادي مغلقاً. قال بسرعة رحمةً بها ورأفةً.

تهالكت على كرسيّ، مستريحة، محرّرة. احتملها قلبه الطيّب، وأخذت تسأل عن صحّة زوجها سعيدة بالنّجاة:

– تبدو شاحبا. ثمّة شيء ليس على ما يرام، عزيزي؟

– لا أحسّ بالبرد، أجاب.

– و لكن، ما بك؟ وجهك متشنّج.

– لا، أنا أبتسم؛ تلك طريقتي في الابتسام: أحرص على أن تكون تكشيرتي خاصة.

أصغت إلى كلماته المقتضبة، الخشنة، من دون أن تفهمها. ماذا يقصد بهذا؟

بدون تنبيه، احتضنها بعنف مرعب ووشوشها في أذنيها:

– هل نفعل كوكو؟ ما رأيك؟

أطلقت صرخة ونادت على الخادمة. حينئذ أخلى سبيلها، وهو يعالج ضحكة لاهثة، جافّة، في فم كبير مشرّع، ثمّ صفعها على عجيزتها.

صباح الغد، قامت زوجته بمجهود آخر، وأعلنت:

– أيّ سلوك غريب صدر عنك البارحة؛ صحيح أن كلّ شيء انتهى، لكنّك لا تزال شاحباً.

–نعم، قال، من المرهق حقّا أن يستعمل العقل من هم في سنّي. لحسن الحظ أنَّ هذا نادرا ما يحدث لي.

بعد أن عرض أنماطاً مختلفة من الحبّ، شرع النّاسك ڤيندِت Vendt في سرد حكاية أخرى:

ثمّة وجود لصنف من الحبّ يُسكر.

عاد زوجان شابّان من سفر طويل احتفاء بزواجهما، واستقرّا في سعادة.

مرّت نجمة شهباء فوق سقف بيتهما.

بحلول الصيف، أخذ الزوجان يتجوّلان من دون أن يفترقا. يقطفان ورودا صفراء، حمراء وزرقاء، يتبادلانها طوال الوقت، يتأمّلان العشب المتموّج بفعل الرّيح، ويصغيان إلى شدو العصافير في الغابة. كلّ كلمة يتبادلانها مفعمة بالحنان. في فصل الشتاء يتنقّلان على مركبة جليديَّة ذات أحصنة تحمل أجراساً. كانت

twitter @baghdad_library

السّماء زرقاء بلون النّيلة. وهناك، عالياً فوقهما، تعبر النجوم الفضاءات غير المتناهية. مرّت بهما سنوات على هذه الحال، ورزق الزوجان الشّابان ثلاثة أطفال، وقلباهما مغرمان كما أوّل يوم، لحظة القبلة الأولى.

ولكن، فجأة، أصيب الرّجل بمرض ألزمه الفراش زمناً طويلاً، ووضع صبر امرأته في اختبار قاس. عندما شفي وتمكّن من الوقوف على قدميه، اغتمّ لرؤية نفسه في المرآة: شوّهه المرض وفقد شعره.

عانى كثيرا جرّاء ذلك.

– الآن، لن يصبح في مقدورك أن تحبّيني، أليس كذلك؟، قال يوماً لامرأته.

لفّت ذراعيها حول عنقه، مضرّجة بالحمرة، وقبّلته بشوق كبير، كما في ربيع حياتهما.

– سوف أحبّك دائما. لن أنسى أبداً أنّك اخترتني من دون الأخريات، وجعلتني سعيدة.

أسرعت إلى غرفتها وقصّت شعرها الأشقر لتبدو أشبه بالرّجل الذي تحبّ.

ومرت أعوام كثيرة؛ شاخ الزوجان وأصبح أطفالهما، الآن، راشدين. وكما بالأمس، كانا يقتسمان كلّ فرح؛ في الصيف،

يذهبان، كالعادة، إلى الحقول يستمتعان برؤية العشب المتموّج بفعل الرّيح، وفي الشتاء، يتزحلقان على مراكب الجليد تحت سماء متلألئة بالنجوم، وهما ملتفّان بمعطفيهما المبطّنين. كان قلباهما لا يزالان مفعمين بالحبّ والدفء، وكأنّهما تحت تأثير إكسير عجيب.

ثمّ جاء دور المرأة فطالها الشّؤم: باغتتها حالة شلل فكان على زوجها أن يسحبها وهي على كرسيّ متحرّك. لقد أثّرت هذه الوضعية على معنوياتها، فأخذت تظهر على وجهها تجاعيد وأخاديد بارزة.

– الآن، أريد أن أموت، قالت يوما، أنا عاجزة ودميمة، بينما وجهك جميل وبهيّ. لن تستطيع تقبيلي، كما كنت تفعل بالأمس، أو محبّتي.

تضرّج وجه الزوج حمرة بفعل تأثّره، قبّلها وهو يجيب:

– أحبّك أكثر من حياتي ذاتها، اسمعي عزيزتي، أحبّك كما في أوّل يوم، لحظة أوّل قبلة، عندما أهديتني الوردة، هل تذكرين؟ مددت إليّ الوردة وأنت تنظرين إليّ بحنان. كان لهذه الوردة عطرك، وأنت تتضرّجين بالحمرة مثلها، ثملت حتى الأعماق، ولكنّني أحبّك اليوم أكثر، أصبحت أجمل مما كنت عليه في شبابك، وقلبي مدين لك بالشكر، ويباركك على كلّ يوم خصّصته لي.

صعد إلى غرفتهما، وصبّ على وجهه حمض حارق ليشوّه

twitter @baghdad_library

وجهه. حينئذ قال لزوجته:

– ها قد احترقت بفعل حادث، سوف لن تحبّينني أبدا، وأنا على هذا الشكل؟

– أوه، زوجي الأعزّ! تأتأت وهي تقبّل كفّيه، أنت أجمل من أيّ رجل على وجه الأرض وأبهى، صوتك لا ينفكّ يلهب قلبي، وسوف أظلّ أحبّك إلى أن يوارى جسدي التّراب.

في الشّارع، التقى يوحنّا كاميلا؛ كانت برفقة والديها والشاب ريشموند؛ أوقفوا سيّارتهم وخاطبوه بكلمات لطيفة.

نزلت كاميلا من السيّارة، وأمسكته من ذراعه:

– لماذا لم تأت؟، سألت، كان حفلاً بهيجاً، هل تعلم. انتظرناك حتى النهاية.

– منعني طارئ.

– سامحني لأنني لم أزرك، تابعت، سوف أمرّ عليك يوما ما، أعدك؛ بمجرّد ما يسافر ريشموند. أووه، لو حضرت حفل الاستقبال! ڤكتوريا أصيبت بوعكة صحيّة، كان علينا أن نرافقها إلى البيت. هل علمت بالأمر؟ سوف أذهب لزيارتها قريباً. تحسّنت حالتها بعض الشيء. ربّما تكون شفيت تماماً. منحتُ ريشموند وساماً شبيهاً بذاك الذي منحتك إياه. اسمع يوحنّا، عدْني بأن تراقب مدفأتك؛ عندما تخوض في الكتابة، تنسى كلّ شيء، يتجمّد المرء في بيتك. في هذه الحالة، عليك أن تنادي على الخادمة.

twitter @baghdad_library

– السمع والطاعة.

سألته السيّدة سيير كيف يسير عمله، قصّة السلالة بوجه خاص. كيف تطوّرت القصة؟ إنها تنتظر بفارغ الصبر إبداعاته الجديدة. مدّها يوحنّا ببعض الأجوبة المستعملة، حيّاها بلطف وراقب السيارة وهي تبتعد.

كل هذا لا يهمه في شيء؛ هذه السيّارة، هؤلاء النّاس، هذه الثّرثرة... استشعر فراغاً وبرداً لم يغادراه حتى وصل البيت.

كان ثَمَّة رجل يذهب ويجيء على مقربة من الباب: معرفة قديمة، مربّي القصر العجوز.

حيّاه يوحنّا.

كان العجوز يرتدي لباساً مَطَرِيّاً طويلاً، دافئاً ونظيفاً، كان يبدو حازماً.

– أمامك صديق وزميل، استهل كلامه، اعطني يدك أيّها الشاب. ابتسم الحظّ لي منذ لقائنا الأخير: لقد تزوّجت. أملكُ، الآن، منزلاً، حديقة صغيرة وزوجة. لا تزال الحياة تعرف المعجزات. ماذا تقول في هذا؟

نظر إليه يوحنّا باندهاش من دون أن يتلفّظ بكلمة.

– هل.. لو تدري، كنت ألقّن ابنها دروساً. لها طفل من زواجها الأوّل. سبق أن تزوّجت، بطبيعة الحال. الخلاصة: تزوّجتُ أرملة.

سوف تقول إنّ هذا لم يتمّ التنبّؤ به لي منذ طفولتي؛ غير أنّني، مع ذلك، تزوَّجت بأرملة، لها طفل. الحديقة والأرملة، اللّذان أتأملهما منذ مدّة، بعثا في داخلي أفكاراً عديدة. فجأة، قلت لنفسي: «كفى! لم يُتنبّأ لك بهذا في برجك، وهكذا دواليك، ومع ذلك افعل هذا». وفعلته، لأنه كان مكتوباً لا ريب. هكذا جرت الأمور...

– تمنّياتي الطيّبة لك، قال يوحنّا.

– كفى، ولا كلمة أخرى! أعرف ما سوف تقوله لي. «وماذا عن الأولى؟» تسألني «هل نسيت حبّ شبابك الخالد؟» هذا ما سوف تسألني عنه. هل يمكنني، سيّدي العزيز، أن ألقي عليك السؤال الآتي: أين ذهبت، إذن، حبّي الأوّل، حبّي الوحيد الخالد؟ ألم ترض بقبطان المدفعيّة زوجا؟ وسوف أطرح عليك سؤالا آخر: هل سبق لك أن رأيت، ولو مرّة واحدة في حياتك، شخصاً يتزوّج تلك التي أحبّها؟ أمّا أنا فلا. يحكى أنّ الله بارك الرّجل الذي صان حبّه الوحيد، الأوّل. ولكن سعادته كانت قصيرة جدّاً. «لماذا؟» تسأل أيضاً، وسوف أعطيك الجواب: لسبب بسيط، هو أنّه مات بعد ذلك بقليل. هل تسمعني؟ بعد ذلك بقليل. آه! آه! هكذا هي الأمور دائماً. لا يمكننا، بطبيعة الحال، أن نظفر بتلك التي نحبّ. حتى لو حدث وظفرنا بها، سواء من باب المصادفة أو بدافع العدل، لا تفتأ تموت مباشرة بعد ذلك. هناك دائماً فراق. ويصبح الإنسان بحاجة إلى حبّ جديد، طيّب على قدر الإمكان، من دون أن يفنى فيه إلى هذا الحدّ، أقول لك: لقد أحسنَت الطبيعة صنع الأشياء. يحتمل الرّجل هذا تماماً. ليس عليك إلا أن تنظر إليّ.

twitter @baghdad_library

– أرى أنّك تتحمّل بروعة، أكّد يوحنّا.

– بامتيان، نعم. تأمّلني جيّدا، واسمع على الخصوص ما سوف أقول لك: هل انهمرت على شخصيتي سيول الكآبة؟ أنا مكسيّ، وأنتعلُ حذاءً جديداً، أمتلك منزلاً أيضاً، مأوى، زوجة وأطفالاً. طفل الزّواج الأوّل. ماذا أريد أن أقول؟ آه نعم... فيما يتعلّق بقصائدي، سوف أجيبك على الفور، زميلي العزيز، أنا أكبرك سنّا، وربّما مزوّد من الطبيعة أفضل منك. قصائدي أودعتها أحد الأدراج ولن تُنشر حتى أموت. سوف تقول لي: «هكذا، لن تنعم بأيّة بهجة؟». ها أنت تخطئ من جديد. في هذه اللحظة، تبعث كتاباتي السعادة في أفراد أسرتي. في المساء، أشعل المصباح، أفتح الدّرج، وأخرج قصائدي لكي أقرأها بصوت مرتفع على زوجتي وعلى الطّفل. هي بلغت الأربعين من عمرها، وهو في الثانية عشرة، وكلاهما مفتون بالشعر. إذا مررت بنا ذات مساء، سوف تبقى لتتناول العشاء معنا، وبعد ذلك أقدّم لك شرابا. ها أنت مدعو من الآن. ليحمِك الله من الموت.

مدّ يده إلى يوحنّا ثمّ أضاف:

– أنت على علم بما حدث لڤكتوريا، أليس كذلك؟

– ڤكتوريا؟ كلاّ. بالأحرى نعم. أخبرت على التوّ أنّها...

– ألم ترها تذبل؟ ألم تر الجفنين يسودّان أسفل عينيها المتعبتين؟

– لم أرها منذ الربيع، في البلدة. هل لا تزال مريضة؟

أجاب المربّي بنبرة مفرطة في الجدّ، وهو يضرب الإسفلت برجله:

– نعم.

– قالوا لي منذ لحظة أنها... لا، لم أرها تذبل، لم أرها على الإطلاق. هل كانت تعاني إلى هذا الحدّ؟

– تعاني.. إلى هذا الحدّ... بل، ربّما من المحتمل أن تكون فارقت الحياة، هل تفهم؟

شرع يوحنّا يتأمّل، بذهول، الرّجل الماثل أمامه، ثمّ بوابة منزله، وتساءل هل كان ينوي الدّخول؛ أدار بصره نحو المربّي العجوز، وقد ارتسمت على محيّاه بسمة مرّة، مؤلمة، أشبه ما تكون بابتسامة عليل.

تابع المربّي العجوز بنبرة محذّرة:

– ها هو مثل آخر على ما كنت أقول، لا يمكن أن تتجاهله. هي أيضاً لم تنل من كان مقدّرا لها،

حبّ طفولتها، هذا الملازم أوّل الشّاب الرّائع. ذهب للصيد عشيّة، فاخترقت رصاصة جبهته وفجّرت رأسه. هو أيضاً كان ضحيّة نزوة القدر. ڤكتوريا، خطيبته، بدأت تذبل، كما لو أن دودة تقتات من قلبها؛ أما نحن، أصدقاؤها، فرأيناها. ثمّ إنها ذهبت،

twitter @baghdad_library

منذ أيام إلى حفل استقبال في منزل المدعوّين بآل سيير؛ قالت لي إنّك سوف تكون هناك. باختصار، خلال ذاك الحفل بلغ منها الإرهاق منتهاه، هاجمتها ذكريات خطيبها، وأبهجتها على الرغم من كلّ شيء. رقصت طوال المساء، مثل مجنونة، حتّى سقطت. وعندما أصبحت الأرض مضرّجة بالحمرة تحت كسوتها، حملوها إلى منزلها. لم تقوَ على تحمّل السّقطة.

اقترب المربّي ببطء من يوحنّا، ولفظ النّبأ في وجهه.

– ڤكتوريا.. ماتت.

مدّ يوحنّا يديه إلى الأمام مثل أعمى:

– ماتت؟ متى حدث ذلك؟ ڤكتوريا ماتت؟

– ماتت، كرّر المربّي، انطفأت هذا الصباح، اليوم بالذات.

أدخل يده في جيبه، وأخرج ظرفاً سميكاً.

– رجتني أن أحمل إليك رسالة. ها هي «بعد موتي»، حدّدت. وها قد ماتت، وأنا أبلغك الأمانة. أظنّ أنّ مهمّتي انتهت.

بدون تحيّة، بدون كلمة زائدة، استدار المربّي واختفى في عمق الدّرب.

بقي يوحنّا مسمّراً في مكانه، والرّسالة في كفّه. كانت ڤكتوريا جثّة هامدة. ردّد اسمها بصوت جافّ، وبدون نبرة أكثر من مرّة، ثمّ نظر إلى الظّرف: هذا خطّها فعلا؛ تتابعُ الحروف

المكبّرة والمصغّرة يُشكّل سطورا مستقيمة بدقّة، غير أنّ من كتبتها لم تعد على قيد الحياة.

دخل بيته، صعد السلالم، أخرج المفتاح وفتح الباب. كانت غرفته معتمة باردة. اتجه ليجلس بالقرب من النّافذة، وأخذ يقرأ الرّسالة على هدي آخر وميض النّهار.

«عزيزي يوحنّا، عندما تكون قرأت هذه السطور، أكون غادرت الحياة. كلّ شيء يبدو ملتبساً الآن، لم أعد أحسّ بالخجل. وأكتب لك من جديد، كما لو أنّ لاشيء يحول بيني وبين ذلك. من قبل، حينما كنت لا أزال حيّة أرزق، كنت أفضّل أن أعاني ليلاً ونهاراً على أن أكتب لك رسالة أخرى؛ لكن روحي بدأت تفرّ منّي، ولم أعد أفكّر في نفس المعاني. أصابني نزيف عند غرباء. فحصني الطبيب ولاحظ أنه لم يتبقّ لي أكثر من قطعة رئة صغيرة: وإذن، لِمَ أخجل؟

هنا، على فراشي، فكّرت جيّدا في آخر كلمات قلتها لك. كنا في الغابة، مساءً. لم أكن أحسب آنئذ أنَّه آخر كلامي معك. لأنني لو علمت ذلك، لودّعتك أحسن الوداع، و لشكرتك. للأسف، لن أراك مرّة أخرى.. وأنا نادمة لأنني لم أرتم على قدميك، لم أقبّل نعليك والأرض التي يدوسانها.

لأبيّن لك إلى أيّ درجةٍ أحبّك.

البارحة واليوم، تمنَّيت لو كنت قويّة بما فيه الكفاية

twitter @baghdad_library

لأتمكّن من العودة إلى البلد ورؤية المكان الذي أمسكت يديّ فيه داخل الغابة. لو كنت أستطيع أن أتمدّد على تلك البقعة من الأرض وأبحث عن أثر منك وأنا أقبل العشب المحيط بها. لكنَّني لن أستطيع ذلك ما لم تتحسّن حالتي الصحيّة، كما تظنّ أمّي.

عزيزي يوحنّا، من العجيب التفكير في أنني لم آت إلى الدّنيا إلاّ من أجل أن أحبّك، والآن أودّع الحياة. لو تعلم كم يبدو غريبا أن يظلّ المرء في سريره ينتظر اليوم الأخير، السّاعة الأخيرة. أبتعد عن الحياة خطوة بخطوة، أبتعد عن الناس في الشوارع، عن ضجيج السيّارات: لن أشهد ميلاد الربيع من جديد. لن أرى، بعد اليوم، تلك البيوت في أعلى الجبل، ولا ممرّات الحدائق وأشجارها، سوف تبقى هنا بعد أن أختفي...

استطعت بمشقّة أن أجلس على سريري، وأن أنظر من خلال النافذة. هناك، في ركن من الشّارع التقى شخصان: حيّا بعضهما بعضاً بشدّ الأيادي. كانا يضحكان مِمّا يقولان، وكان من العجيب، حقّا، معرفة أنَّني، من يرى كلّ هذا، سوف أموت. قلت لنفسي: «هذان لا يعلمان أنَّني أنتظر هنا ساعتي الأخيرة ؛ ولكن، حتى لو خَبِرا ذلك، فسوف يتبادلان التحيّة ويدردشان بالطريقة نفسها».

في الليلة الماضية، عند أشدّ الأوقات عتمة، ظننت أنَّ لحظة الرّحيل أدركتني: توقّف قلبي عن النبض، وبدا لي وكأنَّني أسمع همهمة الخلود، وهو يقبل نحوي من بعيد. لكنَّني لم أفتأ

أن استعدت وعيي سريعا، وبدأت أتنفّس. كان إحساساً يستعصي على الوصف، أما أمّي فتعتقد أنني تذكّرت خرير الساقية والسدّ، ليس إلاّ.

يا إلهي. لو تعلم كم أحببتك، يوحنّا. لم أستطع كشف ذلك. أشياء كثيرة كانت تعيق حبّنا. أوّلها طبعي الشخصيّ. أبي أيضاً كان عدوّ حبّنا الأوّل، وأنا ابنته بطبيعة الحال. ولكن، الآن، بينما أستعد للرّحيل، والوقت متأخّر جدّا، أكتب لك مرّة أخرى لكي أعترف. أسأل نفسي لماذا أفعل، ما دام الأمر لا يهمّك؟. خاصّة الآن، وأنا لست موجودة. أحببت أن أكون بجانبك إلى آخر لحظة حتى لا أحسّ بأنني مهجورة. أتخيّلك وأنت تقرأ هذه الرسالة: يخيّل إليّ أنني أرى كتفيك، يديك وحركاتك. وأقول لنفسي: كم نحن قريبان من بعضنا البعض؟! لماذا أبعث مَنْ يبحث عنك.

لا حقّ لي في ذلك. رغبت أمّي في إحضارك منذ يومين، لكنّني فضّلت أن أكتب إليك. أريدك أن تحتفظ بذكرياتك عنّي كما كنت، قبل أن يهدّني المرض. أتذكّر أنّك... (نسيت هنا بعض الكلمات)... عينيّ وحاجبيّ: ولكنهما لم يعودا كما كانا من قبل. من أجل هذا أيضاً رغبت في ألاّ تحضر. أرجوك، أيضاً، ألاّ تحضر لتراني داخل التابوت. أنا قريبة أكثر مما كنت عليه في الماضي، فقط يعتليني بعض شحوب. وأرتدي كسوتي الصفراء: ولكن، مع ذلك، سوف تأسف لكلّ هذا.

كتبت هذه الرسالة أكثر من مرّة، ومع ذلك لم أصل إلى أن

twitter @baghdad_library

أقول ولو ذرّة ممّا أريد قوله لك. مرعب، بالنسبة إلي، أن أموت. لا أريد. أتشبّث، لا أزال، ببعض الأمل، وأدعو المولى ليعافيني، لعلّني أشهد الرّبيع مرّة أخرى. وإذن، تصفو الأيام وتورق الأشجار. آه، لو استرجعت صحّتي، لن أكون قاسية معك. سوف أحتمل أيّة معاناة كيفما كانت، لو أمكنني أن أعيش فقط. لن أشتكي من أيّ شيء أبداً، بل على العكس تماماً، سوف أبتسم لمن يهاجمني ويضربني، وأشكر المولى وأثني عليه لو حصل وبقيت على قيد الحياة. لم أعش حياتي بعد، لم أذنب في حق أحد، وهذه الحياة التي عشتها باضطراب ينبغي أن تنتهي هنا.

لو تعلم كم أنا حزينة لمغادرة الحياة. ربما تفعل شيئاً، ربما تفعل كلّ ما في وسعك. ولكنّك، بدون شك، لن تستطيع شيئاً. فكّرت لو اجتمعت أنت والآخرون ودعوتم الله لي لتحولوا دون سقوطي فريسة للموت، ربما يمنح الله لي الحياة حينئذ. سوف أكون شاكرة أكثر من أي وقت، لن أقترف شرّا في حق أيّ كان، لو أنني أستطيع الحياة...

تجلس أمّي بجانبي، تبكي. هذه الليلة، أيضاً، كانت تبكي على مقربة منّي. هذا يريحني شيئا ما، فهي تخفّف بدموعها حرارة رحيلي. أفكّر اليوم فيما ستقول لو أقبلت مباشرة نحوك في الشارع، مرتدية أحسن ملابسي، ومحجمة عن قول أيّ كلام يجرحك، على العكس تماماً، أهديك وردة اشتريتها لأجلك من قبل. بعد ذلك بقليل، انتبهت إلى أنّني لا أملك أبداً أن أفعل ما أتوق إليه،

لأني لن أتماثل للشفاء، بل سوف أموت. أبكي باستمرار، بهدوء، بدون توقّف وبدون أمل. إذا لم أنتحب، فإنَّ صدري لا يؤلمني. آه يوحنّا، صديقي الأعزّ، حبّي الوحيد على هذه الأرض.. تعال بالقرب منّي عندما تظلم الدنيا. لن أبكي، سوف أبتسم على قدر ما أستطيع، سوف أسعد كثيرا لرؤيتك.

ولكن، أين اختفت كبريائي وشجاعتي؟ لست في هذه اللحظة إبنة أبي. خانتني قواي. منذ زمن بعيد وأنا أعاني، يوحنّا. حتى قبل هذه الأيام، عندما كنت في ديار الغربة. أعاني، قبلاً، منذ جئت إلى المدينة، وفي الربيع، أعاني كلّ يوم بشكل أكبر. لم أتخيّل أبداً، من قبل، إلى أيّ حدّ يمكن لليل أن يكون طويلاً. رأيتك في الشارع مرّتين: مرّة وأنت تتقاطع معي مدندناً، ولكنّك لم تلمحني. كنت آمل أن ألقاك عند آل سيير، ولكنّك لم تأت. لم أكن لأكلِّمك أو أقترب منك، وكنت امتننت لأنك منحتني فرصة رؤيتك من بعيد. ولكنَّك لم تأت. ظننتك فعلت ذلك لتتجنّب لقائي. في الحادية عشرة استأنفت الرّقص، لم أعد أطيق الانتظار. نعم، يوحنّا، أحببتك طوال حياتي، لم أحبّ أحداً غيرك. أنا، ڤكتوريا، مَنْ يكتب هذه الكلمات والله يقرأها من فوق كتفي.

والآن، أزفت لحظة الوداع: لم أعد أبصر شيئا، لأن الليل حلّ... إلى اللقاء، يوحنّا، شكرا على كلّ يوم. عندما أرحل عن هذه الدنيا، سوف أشكرك مرّة أخرى، حتى النهاية، وسوف أتلفّظ باسمك طوال الرّحلة، من أجلي أنا وحدي. عش حياة طيّبة وسامحني

twitter @baghdad_library

على ما سبّبته لك من ألم. لا تؤاخذني لأنَّني لم أرتم على قدميك وأطلب الصفح. أفعل هذا الآن بفكري.

كن سعيدا، يوحنّا، الوداع. شكراً مرّة أخرى على كلّ يوم، على كلّ لحظة. أنا خائرة القوى تماماً.

حبيبتك ڤكتوريا

أشعلت المصباح، وأصبحت أرى بشكل أفضل. غفوت وابتعدت مرّة أخرى عن العالم. كانت الغفوة، بفضل الله، أقلّ كدراً من المرّة السابقة، بل حتى أنني سمعت نغمات موسيقيّةً. خصوصاً، وأنه ليس ثمّة وجود لعتمة.

أنا ممتنّة لك، ولكن لم أعد أملك القوّة لمتابعة الكتابة. إلى اللقاء، حبيبي...».

خالد أقلعي

– ولد بمدينة تطوان (المغرب) ١١/٢/١٩٦٥
– حصل على شهادة الدكتوراه بجامعة عبد المالك السعدي بتطوان ٢٠٠٥
– يعمل أستاذاً بوزارة التربية الوطنية والتعليم العالي والبحث العلمي.
– يكتب القصة القصيرة منذ ١٩٨٩
– شارك في العديد من التظاهرات الثقافية والأدبية والنقدية.
– صدرت قصصه ضمن «منارات» مختارات من القصة المغربية الجديدة، منشورات نادي القصة القصيرة بالمغرب ٢٠٠١
– عضو اتحاد كتّاب المغرب منذ ١٩٩٦
– عضو الكتابة الدائمة لمهرجان تطوان السينمائي الدولي (مسؤول السينما والمدرسة).

صدر له:

دوائر مغلقة، قصص، منشورات اتحاد كتاب المغرب الرباط،١٩٩٥

أطياف البيت القديم (درب الصوردو)، رواية، منشورات مكتبة سلمى الثقافية، تطوان،٢٠٠٧

حسني الوزاني المبدع المتعدد، دراسة، م.ج، منشورات تطوان أسمير، تطوان، ٢٠٠٩

النقد والإبداع والواقع... نموذج سيد البحراوي، دراسة، م ج، دار العين، القاهرة، ٢٠١٠

وجدان وأشلاء دمى، قصص، سندباد للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٠

التصوف والقصص، رصد لسمة التصوف في القصة المغربية القصيرة.

twitter @baghdad_library

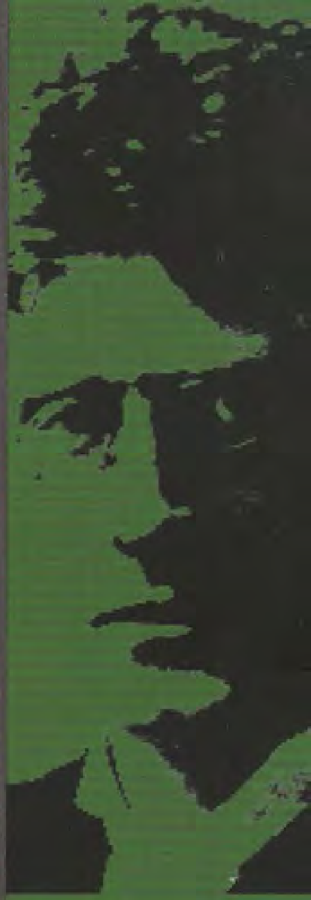

• ولد كنوت هامسون في ٤ آب (أغسطس) عام ١٨٥٩ وتوفي في ١٩ شباط ١٩٥٢.
• تتميز مؤلفاته بالعنصر الشخصي الذي استمدّه من حياته الخاصة، وسعيه الدؤوب وراء الحقيقة.
• نشأ في جو ثقافي متأرجح بين الوضعيّة العلميّة والرومانسية.
• درس في جامعة أوسلو: اللاهوت والفلسفة والعلوم الطبيعية، والفلسفة الحديثة.
• مال إلى اعتبار السيكولوجيا «علماً فلسفياً» يربط بين المنطق والأخلاق وعلم الجمال ونظرية المعرفة.
• زار أمريكا مرتين وأصدر كتاباً انتقد فيه بمرارة، الحياة الثقافية في أمريكا عام ١٨٨٩.
• اتهم بالتواطؤ مع النازيين في أثناء غزوهم لبلده، وحكم عليه بغرامة باهظة في عام ١٩٤٧ من جراء ذلك.

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

مكتبة نوبل ١٩٢٠

ISBN 978-2-84306-171-4
9 782843 061714

لوحة الغلاف: اميل ميلر
تصميم الغلاف: ريم الجندي